مَوقف كُسَيْلة بن لَمَزْم من الفتح الإسلامي للمغرب
[٥٣ - ٦٩هـ = ٦٧٢ - ٦٨٨م]

محمد بن ناصر بن أحمد الملحم

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء - قسم الجغرافيا
المملكة العربية السعودية

الملخص :

تناول البحث التعريف بكسيلة . ووضع كسيلة والبربر قبل الفتح الإسلامي كما تناولت موقف كسيلة من أبي المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢هـ=٦٧٤ - ٦٨١م) وموقفه من عقبة بن نافع (٦٢ - ٦٤ هـ = ٦٨١ - ٦٨٣م) ، وألقيت الضوء على دور كسيلة والبربر في الفتح الإسلامي ، ووضّحت موقف عقبة بن نافع من كسيلة ، وموقعة توذة، وموقف مسلمي البربر من هذه الموقعة ، وأشرت إلى انسحاب المسلمين من القيروان ، واستيلاء كسيلة عليها بعد ذلك ، وبيّنت موقف زهير بن قيس من كسيلة وحلفائه في واقعة ممس سنة ٦٩هـ = ٦٨٨م وذيلّت البحث بخاتمة أوضحت فيها أهم النتائج التي تمّ التوصل إليها.

مقدمة :

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين سيّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه والتابعين ، ومن سار على نجه إلى يوم الدين وبعد :

فقد حظيت الفتوح الإسلامية في جهة الشمال الأفريقي بنصيب وافر من جهود الكتّاب والمؤرخين المحدثين مثل الدكتور حسين مؤنس مؤلف فتح العرب للمغرب ، والدكتور عبد العزيز سالم مؤلف تاريخ المغرب الكبير ، وغيرهم من الرّواد الأفذاذ الذين كان لهم باع طويل في هذا المجال ، إلاّ أن بعض الموضوعات مازالت بحاجة إلى دراسة متأنية فاحصة مثل : موقف كسيلة من الفتح الإسلامي للمغرب (٥٣ - ٦٩هـ = ٦٧٢

- ٦٨٨م) وكل ما كتب عنه أنه دخل الإسلام وحسن إسلامه ، فأساء عقبة بن نافع معاملته وكان ذلك سبباً في فاجعة قبيلته تهوذة لذلك أردت تسليط الضوء على هذه الشخصية وتحليلها ، وتوضيح موقفها الصحيح من الفتح الإسلامي مبيناً :

التعريف بكسيلة . (نسبه ، أسرته ، صفاته ، ديانته) .

وضع كسيلة والبربر قبل الفتح الإسلامي .

موقف كسيلة من أبي المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢هـ = ٦٧٤ - ٦٨١م) .

موقف كسيلة من عقبة بن نافع (٦٢ - ٦٤ هـ = ٦٨١ - ٦٨٣ م) .

دور كسيلة والبربر في الفتح الإسلامي .

موقف عقبة بن نافع من كسيلة .

موقعة تهوذة (سنة ٦٣هـ = ٦٨٢م).

موقف مسلمي البربر من تهوذة .

انسحاب المسلمين من القيروان (سنة ٦٤هـ = ٦٨٣م) .

استيلاء كسيلة على القيروان (٦٥ - ٦٩هـ = ٦٨٤ - ٦٨٨م) .

موقف زهير بن قيس من كسيلة وحلفائه (واقعة ممس سنة ٦٩هـ = ٦٨٨م) .

خاتمة .

وفي نهاية هذه المقدمة أسأل الله تبارك وتعالى أن يلهمني الصواب ، ويجنبني الزلل في القول والعمل ، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تعريف بكسيلة :

يقتضي منهج البحث القاء الضوء على حياة هذا الرجل ، الذي أعلن إسلامه ، وقاتل في صفوف المسلمين ، ثم قلب ظهر المِنّ وحاربهم ، فربما يظهر التعريف به بعض جوانب شخصيته التى جعلته يقدم على ذلك .

فهو كُسَيلة[١] بن لَمَزْم[٢] الأوربي[٣] البربري[٤] البُرْنُسي[٥] . أكبر رؤساء البربر[٦]، وزعيم بربر أُوربه[٧] والبرانس[٨]، ولذا نسب إليهم، كما نسبه البعض إلى امرأة بربرية لقبت بالكاهنة[٩] وتسمى " داهيا[١٠]بنت ماتيه بنت تيفان بن بارو .... [١١]" ويذكرون أن كسيلة ابنها[١٢] . ومن الناحية الشرعية لا يجوز انتسابه إليها ؛ لقوله تعالى ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ...﴾[١٣] ومن الناحية التاريخية لا أصل لهذا من الصحة ؛ لأن الكاهنة كانت تحكم معظم البربر الموجودين في شمال أفريقية وهم جراوة [١٤] (ومقرها الأصلي جبل أوراس)[١٥] التي أنحدرت الكاهنة منهم ، في حين حكم كسيلة بربر أوربة في الأراضي الواقعة غرب تلمسان[١٦] . ثم إن الكاهنة كانت تدين بالوثنية[١٧] ، بينما كان يدين كسيلة بالنصرانية[١٨] ، وللكاهنة ابنين فقط ، أحدهما ، اسمه قويدر والآخر يامين[١٩]، وكانا صغيرا السن وقت حركة الكاهنة (٧٤ - ٨٢ هـ = ٦٩٣ - ٧٠١م) ، مما يتبين معه أنه لا علاقة بين الكاهنة وكسيلة البربري إلى جانب أن الكاهنة جاءت في فترة متأخرة عن كسيلة فقد عاصرت حسان بن النعمان في موجة الفتوح الثالثة لبـلاد المغرب (٦٩ - ٧٦هـ = ٦٨٨ - ٦٩٥م).

وكان كسيلة متوسط الطول كثيف اللحية[٢٠] ، محباً للغدر والخيانة ، فقد أتلف الآبار التي خلّفها عقبة بن نافع في طريقه لفتح المغرب[٢١]. والدهاء من صفاته أيضاً ، فحين قرب منه عقبة بن نافع في خمسة آلاف مسلم تراجع عنه ورفض قتاله علماً أنه كان في خمسين ألفاً من البربر والروم ؛ حتى يتفرق عنه معظم أصحابه ويبقى في عدد قليل فيمكنه الانتصار عليه[٢٢].

والصبر على المكاره من الصفات التي تميز بها كسيلة ، فقد تحمل القيود التي غلّله بها عقبة بن نافع أثناء فتحه للمغرب[٢٣].

وجدير بالذكر أن كسيلة وافق البربر في معظم صفاتهم - ومنها شدة البأس والقوة - ، مما جعلهم يحترمونه ويقدّرونه ويجعلونه أميراً عليهم بعد موت أميرهم السابق (ستردير بن رومي ...)[٢٤]، وكان لهذه الصفات أثرها في حياة كسيلة العسكرية .

وضع كسيلة والبربر قبيل الفتح الإسلامي :

استقر بربر أوربه قبل الفتح الإسلامي في المنطقة الجبلية الواقعة بين تاهرت[٢٥] ووهران[٢٦]، والتي تتوسطها تلمسان ، وهذه المنطقة كانت منذ القدم مركزاً للبربر الذين تأثروا بالحضارة الرومانية ، وأخذوا صبغتها وحملوا لواءها في افريقية[٢٧]، كما كانت نقطة اتصال بين الروم والبربر .

كان يحكم البربر حينئذ الأمير ستردير بن رومي ، وبقي فيهم ثلاثاً وسبعين سنة[٢٨] - ٥٩٨ - ٦٧١م . مما يدل على أنه كانت له مكانة كبيرة بينهم ، فأحبّوه وأعلنوا له الطاعة - خلال تلك الفترة - خاصة وأنه بذل ما في وسعه ليكوّن منهم قوة عظيمة تقاوم الأخطار الخارجية التي تهدّد أمنهم واستقرارهم . يقول أحد المؤرخين[٢٩] "كان بربر أوربا على درجة من القوة والانتظام حيث حكمهم الأمير ستردير ثلاثاً وسبعين سنة" .

ولما مات ستردير خلفه كسيلة البربري[٣٠]، وهذا يعني أنه عاش بينهم زمناً طويلاً عرفوا خلاله طباعه وسياسته ، وعلموا أنه هو الذي يمكن أن يخلف ستردير ، ويسير على سياسته ويبدأ من حيث انتهى ، فيواصل تطوير مستوى البربر السياسي والعسكري ويهتم بالدفاع عنهم ، ويحقق الهدف الذي رسمه مع الروم - أحلافهم - وعليه لا نخطئ إذا قلنا

أن مقاومة كسيلة للأخطار الخارجية - في الغالب - مقاومة بيزنطية ، وهذا معناه أنه كان للروم يدٌ في حركة كسيلة .

موقف كسيلة من أبي المهاجر دينار[٣١] (٥٥ - ٦٢هـ = ٦٧٤ - ٦٨١م) :

حرص أبو المهاجر دينار على سرعة الوصول إلى مكان كسيلة وجماعته بربر أوربه في غرب تلمسان ؛ لخوفه من استكمال استعداداتم مع حلفائهم الروم ، والتي كان الهدف منها مقاومة القوات الإسلامية وطردها من أرض افريقية لتعود ملكاً لهم وللروم كما كانت .

وكان جماعة من البربر دخلوا الاسلام بعد فتح عبد الله بن أبي السرح[٣٢] لسبيطلة سنة ٢٧هـ = ٦٤٧م ، وعز عليهم أن يروا هذه المؤامرات تحاك ضدّ اخوانم المسلمين العرب ثم يقفوا أمامها مكتوفي الأيدي ، فرأوا أن يبعثوا بذه الأخبار إلى المسلمين ليحبطوها ، ولعله تزامنت رغبة البربر في نشر الإسلام في ربوع افريقية مع خوفهم من قوة الروم الذين لم يجدوا الراحة والأمن في ظلّهم ، ونقلوا رغبتهم هذه إلى أبي المهاجر دينار ، الذي عجلّ بالمسير ، وترك الإقامة في مدينة القيروان [٣٣] التي أقامها عقبة بن نافع[٣٤] لتكون مركزاً استراتيجياً يلجأ إليه المسلمون في حالة مداهمة خطر البربر والروم لهم ، ونزل بأرض تونس [٣٥] - وقيل نزل بسبخة وبنى با -[٣٦] .

ونردّ ما قاله البعض[٣٧] عن احراق أبي المهاجر للقيروان أو تدميرها ، وأن ذلك بايعاز من مسلمة بن مخلد الأنصاري[٣٨] ؛ فقضية تدمير مدينة كالقيروان أخذ بناؤها من جهود المسلمين ما أخذه - وكانت نقطة لانطلاق المسلمين في أفريقية - غير وارد أصلاً، سواءً كان ذلك من مسلمة الأنصاري أو مولاه أبو المهاجر دينار ؛ لأن هذا التصرف يعتبر عملاً تخريبياً يستبعد توقعه من الأعداء ، فكيف ينسب إلى المسلمين ، كما نستبعد أن يقوم أبو المهاجر دينار ببناء مدينة جديدة غير القيروان كما أفاد ابن عذاري[٣٩]؛ إذ لم يكن لديه الوقت الكافي لبناء مدينة أخرى ، أو بمعنى آخر لم يأت لهذا الغرض ، ولعله اختار

مدينة أو قرية قريبة من القيروان، فأقام بها مقراً للإمارة ومسجداً جامعاً ، وأضاف إليها بعض المنشآت اللازمة لعسكره ، ولما انتهى العمل فيها نقل الناس من القيروان إليها - لخوفه على جنده من الراحة والدعة في هذه المدينة المحصّنة - فأقفرت القيروان وأوحشت ربوعها ، وهذا ما نفهمه من قول النويري[٤٠] "... ثم أمر الناس أن يخربوا القيروان ويعمروا مدينته" أي يتركوا القيروان لتصبح خرابا بدون سكان ، ويسكنوا مدينته لتعمر بوجودهم[٤١].

كما يفهم من قول النويري[٤٢] " ... وسمّاها (أي القرية التي نزلها أبو المهاجر) "بتكيروان" أن أبا المهاجر لم يقصد بعمله أن يفسد عمل عقبة في القيروان ، ويخلّد ذكره في المكان الآخر ؛ لأنه لو أراد ذلك لما أسماها البربر (بتكيروان) ، وترك المسلمون العرب تسميتها وهم بُناتها ، ولمّا كان ذلك المكان الجديد بربري الأصل لم يستخلف أبو المهاجر دينار عليه عند مغادرته حامية تقوم بحراسته[٤٣] ، لخوفه على المسلمين من انقضاض البربر والروم عليهم ، وربّما كانت النواحي الأمنية تدعوه للحذر وعدم المجازفة ببقاء الحامية .

وقد يكون هذا التصرف من أبي المهاجر دينار رغبة منه في التقرب إلى البربر والإقامة في قرية من قراهم ، حتى يوهمهم أن قيروانه لا يمثل احتلالاً أجنبياً لبلادهم .

لكن ما الدافع لتحرك كسيلة والبربر في هذا الوقت ، وكانوا قد ركنوا إلى الراحة والطمأنينة قبل ذلك ؟

لابد أن تأسيس عقبة بن نافع مدينة القيروان كان له الأثر الواضح في نفوس البربر الذين كانت تربطهم بالروم روابط وثيقة ، وكانوا حينئذ تحت حكم أميرهم ستردير الذي لم يفكر في عاقبة ذلك ، بل جدّد عهده مع البربر وضمن لهم الحماية والاستقرار في ظل حكمه، ولما خلفه كسيلة في الحكم استمر على نفس المنوال ، ورأى أن أسلوب الراحة والركون إليها لا يحقق ما يطمحون إليه ، فأشعر البربر بخطورة المسلمين ، وجمعهم ودعاهم إلى التعجيل بالاستعدادات اللازمة للمواجهة ، إلاّ أن أبا المهاجر استحث الخطى

وعجّل الوصول إليهم لمهاجمتهم قبل أن يتحركوا لمقاومة المسلمين ، وكان لذلك النشاط الواضح في التحرك أثره الفعلي ، ففتح كل ما مرّ عليه ، حتى انتهى إلى العيون المعروفة باسمه (عيون أبي المهاجر) نحو تلمسان[٤٤] .

فأجأت القوات الإسلامية كسيلة والبربر في غرب تلمسان ، فكان على كسيلة إما أن يغامر مع قواته التي لم تستكمل بعد استعداداتا ، ويلتقي بقوات نظمت نفسها واستعدت للقتال ، فينجم عن ذلك الخسائر في الأرواح والأموال ، أو يقبل بما عرضه عليه أبو المهاجر دينار من الدخول في الإسلام مقابل أن يضمن له سلامة البربر واستقرارهم .

وأمام هذه الظروف لم يكن لكسيلة إلاّ أن يعلن إسلامه محافظة على نفسه وجماعته[٤٥]، وربّما أنه أطمأن إلى أبي المهاجر دينار ، الذي رأى من الحكمة ألاّ يشهر السلاح في وجهه حتى يدعوه إلى الإسلام ؛ لعلمه أن القائد المسلم داعية قبل أن يكون مقاتلاً. قال الحق تبارك وتعالى :﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن...﴾[٤٦] .

ولا شك أن أبا المهاجر كان بعيد النظر ، فقد علم مدى طاعة البربر لكسيلة ، وأن الناس على دين ملوكهم ، ودخوله في الإسلام يعني دخول البربر ، وقد تحقق لأبي المهاجر ما كان يصبوا إليه ، فقد تبع كسيلة بعد إعلانه للإسلام جماعته البربر . يقول أحد المؤرخين [٤٧] " ولا نزاع في أن إسلام كسيلة كان حادثاً عظيماً له معناه وأثره البعيدان ، فأما معناه فنجاح الفاتح الإسلامي في تأدية الغرض الأسمى من هذا الفتح وهو نشر الاسلام ، وأمّا تأثيره فلا نزاع في أن كسيلة لم يسلم بمفرده ، وإنما تبعه نفر كبير من قومه " .

يظهر مما تقدم سّر استجابة البربر وكسيلة السريعة للإسلام ، فبعد أن علموا أن الإسلام هو الحلّ الأمثل للخروج من هذه الضائقة رحّبوا به وأعلنوه ، في الوقت الذي بّيتوا فيه الرِّدة والغدر بالمسلمين ، بالاتفاق مع حلفائهم الروم ، ولعل الأحداث التالية ستوضح ذلك .

يجب ألا ننسى أن البربر قد اعتادوا الردة عن الإسلام ، حتى أن ابن خلدون[٤٨] يقول عنهم " ارتد البربر عن الإسلام اثنتي عشرة مرة ، وقال مؤنس نقلاً عن الباجي[٤٩] " أن كسيلة أسلم قبل حملة أبي المهاجر ، ثم ارتد وخالف وجمع أمماً من البربر والروم ... ثم دخل الإسلام مرة أخرى ..." ويقول السلاوي[٥٠] : "إن أبا المهاجر حين وصل إلى تلمسان وظفر بكسيلة أظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه " ، وقال الدباغ[٥١] "إن أبا المهاجر عقد حلفاً أو صلحاً مع كسيلة وأحسن إليه واتخذه صديقاً" .

وكان أبو المهاجر قد صالح كسيلة والبربر على أن يقوم البربر بمساندة القوات الإسلامية أثناء فتحهم للمغرب ، ويقفوا إلى جانبهم في حالة مداهمة الروم لهم ، وعدم الاعتداء من الطرفين على الآخر ، وإمداد المسلمين بالمعلومات التي يحتاجون إليها في عملياتم العسكرية المستقبلية .

وإن عدم اشارة المصادر إلى كسيلة والبربر خلال ولاية أبي المهاجر (٥٥ - ٦٢هـ = ٦٧٤ - ٦٨١م) لدليل على وجود حالة هدوء واستقرار بين الطرفين ، مما يفيد أن البربر نفّذوا شروط الصلح ، وساروا في صفوف القوات الإسلامية يقاتلون معهم ويفتحون البلاد ، فكان هذا الصلح خير معين لأبي المهاجر في الاستمرار في الفتح كما أشار إلى ذلك ابن تغري بردي[٥٢] . وعلى ذلك يمكن القول أن أبا المهاجر وفق في ضمان

ولاء البربرمما كان بينه وبينهم من هدوء مؤقت خلال فترة ولايته [٥٣]، وكسب مودتهم وضمن انضواءهم تحت لوائه وعدم انحيازهم إلى الروم[٥٤].

موقف كسيلة من عقبة بن نافع (٦٢ - ٦٤هـ = ٦٨١ – ٦٨٣م) :

لم تكن أفريقيـة جديـدة على عقبة بن نافع ، فقد تولى أمرها سنة ٥٠هـ =٦٧٠م[٥٥] من قبل الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، فدخلها في عشرة آلاف مقاتل ، وهزم جيوش البربر والروم بها في مواقع متعددة [٥٦] وبنى مدينة القيروان - ٥٣هـ =٦٧٢م - ؛ لتكون قاعدة ارتكاز في قلب البلاد يوجهون منها الحملات للفتح ونشر الإسلام في أفريقية ، ولتكون مركزاً لإمداد القوات الإسلامية على طول خطوط الغزو الساحلية ، بيد أن ولاية عقبة لم تدم أكثر من أربع سنين [٥٧] (٥٠ - ٥٥هـ = ٦٧٠ - ٦٧٤م) ثم تولى بعده أبو المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢هـ =٦٧٤ - ٦٨١م) وبعد أن تولى الـخلافة يزيد بن معاوية (٦١ - ٦٤ هـ = ٦٨٠ - ٦٨٣م[٥٨] ، استقطع ولاية افريقية من مسلمة بن مخلد (والي مصر) وعزل أبو المهاجر دينار سنة ٦٢هـ = ٦٨١م - وردّ عقبة بن نافع إلى ولاية أفريقية مرة ثانية.

وتصوّر المصادر سياسة عقبة بن نافع في أفريقية بعد ولايته الثانية فتقول[٥٩] "قدم عقبة إلى القيروان وقبض على أبي المهاجر دينار وأوثقه في الحديد وصادر ما معه من الأموال وجملتها مائة ألف دينار ، وأمر بتخريب مدينة أبي المهاجر التي بناها ، وردّ الناس إلى القيروان...".

ويقول أحد المؤرخين [٦٠] "إنه تعمد مخالفة سياسة أبي المهاجر وهي التقرب إلى البربر ومصانعتهم ، وأساء إلى زعيمهم كسيلة على الرغم مما أوصاه به أبو المهاجر وتعريفه به أنه من ملوك البربر" وقال آخر [٦١] "إن همّ عقبه بن نافع كان منصرفاً إلى

تحديّ أبي المهاجر وإذلاله وإذلال من لاذ به ، وأن عقبة أشفى غليله بتخريب مدينة أبي المهاجر التي بناها" .

يظهر من هذه الروايات أن الشغل الشاغل لعقبة بن نافع الانتقام من أبي المهاجر والتشفي منه ، وأن تفكيره في الفتح الإسلامي جاء في المرتبة الثانية .

لكن حين ننظر بروية نجد أن القائد عقبة بن نافع كغيره من القادة الآخرين لم يتجه إلى هذه البلاد البعيدة إلاّ بدف الفتح ونشر الدين الإسلامي في ربوع أفريقية ، أما عن وضعه لأبي المهاجر في الحديد فهذا وإن صحّ فربما كان في بداية قدومه إلى القيروان[٦٢]، إلاّ أنه لم يلبث أن أطلقه ؛ لمكانته عند المسلمين والبربر .

أما عن تخريب مدينة أبي المهاجر (تيكروان) فلم يكن هناك في الأصل مدينة ابتناها أبو المهاجر ، وانما كانت هناك قرية جاء إليها وهي (تيكروان) وبنى فيها قصراً للإمارة ومنشآت عسكرية ، ويظهر من كلمة " تخريب عقبة لها " يعنى تركها وعدم ابقاء المسلمين فيها؛ وذلك لأنه رأى عدم صلاحيتها للمسلمين ، فالقيروان هي الموقع المناسب والأصلح . يقول ابن أبي دينار[٦٣] " أنه أعاد الناس إلى القيروان وعمّرها " أي لما أعاد الناس إليها عاد إليها العمران وهذا شبيه بما عمله أبو المهاجر بعد قدومه إلى افريقية ، وربما كان كلٌ من القائدين له اجتهاده ، فيرى البعض البقاء في مكان ، والآخر يفضل الانتقال عنه إلى مكان آخر؛ نظراً للمستجدات في هذه المنطقة .

ولو نظرنا إلى إساءة عقبة بن نافع لكسيلة ، فلم يكن هدفه التشفي من أبي المهاجر وإذلال من لاذ به على حدّ قول بعض الروايات ، وإنما لخوفه من انقلاب البربر عليه ، وعدم التعاون معه ، ولذلك أقدم على وضع كسيلة في القيود عدة أيّام ، وهددهم بقتله إن فكروا الغدر بالمسلمين ، وهو بلا شك اجتهد وأخطأ ، فكان ذلك سبباً من أسباب نقمة البربر عليه ، وهذا ما سنبينه فيما بعد .

دور كسيلة والبربر في **الفتح الإسلامي الثاني**[٦٤]:

جهز عقبة بن نافع جيشاً عدده خمسة عشر ألفاً [٦٥] معظمهم ممن قدم معه من الشام ومصر ، يشاركهم مسلمو البربر مع كسيلة ، ودار قبل خروجه حول القيروان ودعا لها قائلاً: "يارب املأها علماً وفقهاً واملأها بالمطيعين لك ، واجعلها عزّاً لدينك وذلاً على من كفر بك"[٦٦]. ثم جمع أولاده وأوصاهم بثلاث خصال هي : الحرص على القرآن الكريم ، وترك الدّين وألاّ يأخذوا العلم إلاّ من أهله[٦٧].

ثم يَمّم ناحية باغاية[٦٨]، وعندها اصطدم بجيوش الروم وهزمهم رغم كثرة أعدادهم - والتي تجاوزت عشرين ألفاً - وعُدَدَهم[٦٩]، فمنهم من هرب خوفاً من المسلمين ومنهم من حوصر في باغاية ، ثم هزمهم مرة ثانية على وادي المسيلة بالزاب[٧٠] وقتلهم قتلاً ذريعاً، وغنم أموالهم ، وغنم منهم خيلاً لم يروا في مغازيهم أصلب ولا أسرع منها من نتاج خيل أوراس[٧١] وحين وصلوا تاهرت استغاث الروم ببربر تاهرت ، فأجابوهم ونصروهم[٧٢] ، فخطب عقبة بن نافع في جيشه ، وقال في خطبته "بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه : أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة . باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة ، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلاّ طلباً لرضاه واعزازاً لدينه ، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذلّ إن شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل لا يسلمكم فالقوهم بقلوب صادقة فان الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين"[٧٣].

واستجاب جند عقبة لخطبته ، وتشجعوا على قتال عدوّهم ، حتى تمكن عقبة من القضاء على كل مقاومة للبربر والروم في المغرب الأوسط ومضى متجهاً إلى طنجه فنصحه أبو المهاجر دينار ألاّ يفعل ذلك ؛ لأن قبيلة أوربة البرانسية أسلمت بإسلام كسيلة ، ولا يوجد ما يدعو إلى غزوها ، كما طلب منه أن يبعث مع كسيلة أحداً ، فرفض عقبة ذلك كله [٧٤]؛ رغبة في التأكد من إسلام بربر أوربه القاطنين في طنجه ، وفي طريقه إليها اصطدم بجماعة من البربر ، فانهزموا أمامه إلى الحصون والمعاقل .

ولابد أن أخبار المسلمين وانتصاراتم وصلت إلى حاكم طنجة (يليان) الذي لم يتأخر في إعلان الطاعة لعقبة بن نافع منذ أن وصل بلاده [٧٥]، كما دله على مواطن البربر فيما وراء جبال الأطلس ، وبفضل ذلك تمكن من الوصول إلى مدينة وليلى[٧٦]، فقاتل البربر وهزمهم .

ثم سار خلف الفارّين منهم إلى دَرْعة[٧٧]، وهناك تجمّعت له جموع من البربر ، فقاتلها قتالاً شديداً لم يشهد البربر مثله ، فهزمهم عقبة وقتل منهم أعداداً كبيراً [٧٨]، وظل ينتقل من نصر إلى نصر حتى وصل ساحل المحيط الأطلسي ، وفي الماء وضع أقدام فرسه ثم رفع يديه إلى السماء وقال : " يارب لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسلك القرنين مدافعاً عن دينك مقاتلاً من كفر بك "[٧٩].

ومما سبق يتضح لي أنه سار إلى جانب عقبة بن نافع طائفتان من البربر ، الأولى : أخلصت له وقاتلت معه من أجل الدين الإسلامي وهم بتر البربر[٨٠]. والثانية : أظهرت إخلاصها لعقبة بن نافع وأبطنت الغدر له وهم برانس البربر وفي مقدمتهم كسيلة . وكانوا ينتظرون الفرصة المواتية ، ليكثر جمعهم ويلتقوا بحلفائهم الروم ؛ لينتقموا من عقبة، يؤيد ذلك الاتصالات التي قام با كسيلة بأهله وذويه من البربر منذ أن تحرك من تلمسان،

ليدبر معهم المكيدة لعقبة والمسلمين ، ولذلك جعلهم يتلفوا الآبار خلف عقبة - وقيل أنه قام بإتلافها - وأخذ يوافيهم بأخباره وأسراره ويرسم لهم المؤامرة الأخيرة التي انتهت بمصرع عقبه .

ولابد أن عقبة بن نافع كان يعلم بهذه التطورات ؛ مما دفعه إلى مخالفة أبي المهاجر في أمرين : الأول : لما طلب منه أن يتراجع عن غزو طنجة ؛ لأن أهلها من برانس البربر أسلموا بإسلام كسيلة (وهذا يفيد أنه شك في إسلامهم) الثاني : حين طلب منه أن يعامل كسيلة معاملة طيبة، لأنه ملك في قومه ، فرفض عقبة ذلك ، بناءً على ما ظهر له من كسيلة والبربر، وأهان البربر ، وشتّت شملهم على الطريق الممتد إلى السوس الأقصى .

موقف عقبة بن نافع من كسيلة بعد انتصاره :

عسكر الجيش الإسلامي قبل طنجة بميلين - وقيل بعدها - وجاءهم عقبة بن نافع بذود[٨١] غنم ، وطلب منهم ذبحها وسلخها ، وأمر كسيلة مساعدتهم . يقول المؤرخون[٨٢] "أتى عقبة بن نافع بذود غنم للعسكر فذُبح الذود ، فأمر عقبة كسيلة أن يسلخ مع السالخين، فقال له : أصلح الله الأمير ، هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني ، فنهره عقبة ، وقال له: قُمْ ، فقام كسيلة مغضباً ، فكان كلما دَحَس[٨٣] في الشاة مسح يده بلحيته مما علق بيده من بلل ذلك ، وجعل المسلمون العرب يمرّون عليه وهو يسلخ ويقولون له : يابربري ، ما هذا الذي تصنع ؟ فيقول : هذا جيد للشعر ؛ فمرّ به شيخ من المسلمين العرب فقال : كلا إن البربري ليتوعدكم ، فقال أبو المهاجر لعقبة : أصلح الله الأمير ما هذا الذي صنعت ؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف[٨٤] جبابرة العرب ؛ كالأقرع بن حابس التميمي[٨٥] وعيينة بن حصن [٨٦] وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزّه ، قريب عهد بالكفر فتفسدُ قلبه ؟ توّثق من الرجل فإني أخاف فتكه ، فتهاون به عقبة ، فلما انصرف نكث البربر ما كانوا عليه ، وأقبلت النفرة[٨٧] إلى عقبة ، فقال له أبو المهاجر : "عاجله قبل أن يجتمع أمره" فزحف إليه عقبة ، فتنحى من بين يديه، فقالت

البربر لكسيلة : لم ترب من بين يديه ونحن في خمسين ألفاً وهو في خمسة آلاف ؟ فقال : إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان وَمَدَدُ الرجل قد افترق عنه ، فإذا طلب أفريقية زحفت إليه ... " .

يتبين من ظاهر النص أن عقبة بن نافع أساء معاملة كسيلة - مقدّم البربر - وأهانه ففرّ كسيلة من معسكر عقبة ومعه جموع بربر أوربه الذين سرعان ما نقضوا عهدهم مع عقبة بن نافع ، وكوّن كسيلة منهم جيشاً كبيراً لمنازلة القوات الإسلامية ، ولكن لم يرغب في قتال المسلمين حتى يعود عقبة من غزوته ويبعث بالقوات الإسلامية إلى الشرق فيصبح في قلّة من أتباعه فيسهل السيطرة عليه .

ويعلق أحد المؤرخين [٨٨] على تصرف عقبة بأنه كان يسعى لنقض سياسة أبي المهاجر من أساسها ، وهي سياسة أثبتت نجاحاً عظيماً ، إذ انتهت بدخول عدد كبير من بربر أوربه في الإسلام ، ويقول لو أن عقبة بن نافع تابع سياسة أبي المهاجر دينار لقدّر له أن يستكمل فتح المغرب كله دون أن يريق كثيراً من دماء المسلمين . والحقيقة أن عقبة لم يكن يكره أبو المهاجر ليلغي سياسته كلها ؛ فقد عرف عقبة بتقواه وورعه ، وهو معذور فيما فعل بسبب كثرة ارتداد البربر عن الإسلام .

إن المتأمل شخصية عقبة بن نافع يعرف أنه كان أعلم الناس بطبائع البربر ونفسياتهم، فقد عاش بينهم - أثناء ولايته الأولى ٥٠ - ٥٥هـ = ٦٧٠ – ٦٧٤ م [٨٩] – وغزا بلادهم ودخل الإسلام منهم عدد كبير ، ولما رجع عن بلادهم ارتدوا فأصبحت الردة عن الإسلام لهم عادة كما أشار إلى ذلك ابن عذاري[٩٠] حين قال : "إن أفريقيه إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله تعالى إلى الكفر" وهذا هو الدافع الأساسي الذي دعا عقبة إلى بناء القيروان فيها . وفي هذا إشارة إلى أن عقبة علم في ولايته الثانية – ٦٢ – ٦٤ هـ = ٦٨١ - ٦٨٤ م - أن

زعيمهم كسيلة وجماعته من بربر اوربه أظهروا الإسلام وأبطنوا الغدر والخيانة مما جعله لا يأمن جانبهم ، ولذلك وضع كسيله في القيود عند قدومه افريقيه ، باعتباره الرأس المدّبر الذي يخشى خطره ، حتى لا يتمكن أصحابه من بربر أوربه من عمل أي شيء يضرّ بالمسلمين ، ولما كانوا يعظّمون زعيمهم كسيلة حافظوا على عهدهم مع عقبة وساروا معه يقاتلون في صفوفه ، ولكنه حينما خرج على عقبه نكثوا عهدهم وهّبوا معه جماعات.

ولو أن المسلمين العرب أو غيرهم ممن أخلص إسلامه من البربر شعروا من قريب أو بعيد بأن كسيلة حَسُن إسلامه كما أفادت بعض المصادر[٩١] ، بالمحافظة على الصلوات الخمس وقراءة القرآن وذكر الله عز وجل والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم ... لبادروا إلى اقناع عقبة بن نافع بضرورة تغيير معاملته لكسيلة ، ومن المؤكد أن عقبة أحسّ برائحة غدر وخديعة أو وجد من كسيلة ما يسيء إلى الإسلام والمسلمين ، فأراد إهانته والحطّ من شأنه ؛ ليشعره بمكانة المسلمين وقدرهم ، وهذا بالتأكيد زاد من حقده على الإسلام والمسلمين ، فاعتقد المؤرخون أن إهانة عقبة له بذبح الغنم وسلخها الدافع الأساسي لغدر كسيلة بالمسلمين.

ولما نقرأ قول الدكتور مؤنس[٩٢] " أن كسيلة أوصى أتباعه أن يتلفوا الآبار التي يخلفها عقبة على الطريق منذ مغادرته تلمسان نعلم بوضوح أن إهانة عقبة لكسيلة بذبح الغنم وسلخها ليست السبب في غضبه وغدره[٩٣] ، لكن الأمر كان مدبراً له منذ انطلاقه من غرب تلمسان . يقول أحد المؤرخين[٩٤] : "إن الدلائل كلها ناطقة بأن كسيلة كان على اتصال بآله وذويه من أول الأمر ، وأنه أخذ يدبر معهم الأمر لخلاصه والانتقام من عقبة ، ولذا أوصى البربر بتنفيذ مؤامرته ، فأمرهم بإتلاف الآبار التي يتركها عقبة في طريقه" وأمرهم أيضاً بإظهار الإخلاص وحسن النية بمشاركة عقبة في القتال ، وربّما أحس أتباعهم البربر والروم من سكان المدن الأخرى بذلك ، فكانوا على قسمين : إما أن

يفرّوا من وجوههم يميناً وشمالاً[٩٥]، أو يصطدموا بم وينهزموا أمامهم ، وأخذ يوافيهم بأخبار عقبة وأسراره ويرسم المؤامرة الأخيرة التي انتهت بقتل عقبة والمسلمين .

وكانت قصة ذبح الغنم وسلخها فرصة عظيمة لكسيلة ليعلن للناس غضبه وسخطه على عقبة ، ويوهم المسلمين العرب أن غضبه بسبب معاملة عقبة له ، ولذلك وجدنا شيخاً من العرب فهم ذلك وقال : "إن البربري يتوعدكم ..." مما اضطر معه أبو المهاجر إلى تحذير عقبة من كسيلة .

أما ما ذكر عن عقبه وسّبه لكسيلة [٩٦] حينما طلب منه أن يعفيه من ذبح الغنم وسلخها فهذا غير وارد ، فالإسلام ينهى عن السّباب والشتائم ، وخاصة الذين في موقع القدوة والقادة ، كعقبة الذي عرف عنه التمسك بالإسلام وآدابه ، وكل ما دار بين الطرفين أن كسيلة طلب من عقبة اعفاءه من الذبح والسلخ فرفض وقال : (لا) وهذا قد بّينه ابن عَذاري[٩٧] ونشك أن يكون كسيلة بقي في قيوده خلال حروب عقبة[٩٨] ؛ إذ لا يستطيع المقيّد أن يقوم بدفن الآبار خلف عقبة بن نافع والقوات الإسلامية[٩٩]، كما لا يتمكن مباشرة الذبح والسلخ ، وهل من الممكن لمن قيدّ في الحديد أن يهرب بكُلَ يسر وسهولة من مَعسكر المسلمين ، وما نريد قوله أنه من غير الممكن لأيّ إنسان أن يمارس هذه الأعمال الصعبة وهو في الحديد ، والذي يظهر أنه حينما قدم عقبة بن نافع القيروان شعر بوجود غدر وخيانة من كسيلة ، فأراد أن يؤدبه بوضعه في القيود عدة أيام كما أدّب غيره قبل ذلك[١٠٠] ، ثم يطلق سراحه؛ ليخوف بذلك جماعته من برانس البربر حتى لا يفكروا في الغدر كما فكّر فيه من سبقهم [١٠١]، وإذا تم له ذلك هان عليه أمره ولم يلْقِ له بالاً ، وهذا هو الذي دفع أبو المهاجر إلى أن يقول لعقبة " توثقّ من الرجل فإني أخاف فتكه فتهاون به عقبة ... " .

ولابد أن هروب كسيلة من معسكر المسلمين كان في لحظة غفلة منهم ؛ إذ لو علم المسلمون بحركة هروبه لما تركوه يفعل ذلك ، كما كان بتدبير من برانس البربر الذين تلقفوه وأخفوا أمره ، وكان ذلك أثناء رجوع عقبة إلى أفريقيه باعتباره كان مسرعاً في طريقه ، فانشغل المسلمون عنه ، وكانت الفرصة مواتية لأن ينفذّ كسيلة مرحلة ما قبل الأخيرة ، وهي أن يهاجم المسلمين في القيروان في حشود ضخمة ، ليدفع عقبة إلى الإسراع بإرسال من معه لحمايتها ، وينفرد به ، يقول ابن عبد الحكم [١٠٢] "لما رجع عقبة من أفريقية واتجه إلى السوس خالفه رجل من العجم (أي البربر) ويقصد به كسيلة ، في ثلاثين ألفاً إلى عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس ، فقاتلاه قتالاً شديداً ، فهزم كسيلة".

موقعة توذة [١٠٣] سنة ٦٣هـ = ٦٨٢م س [١٠٤] :

عد أن انتهى عقبة من مواصلة حلقة الفتوح في أفريقية ووصل إلى نهاية السوس الأقصى[١٠٥] وأدخل أهل جزولة في الإسلام[١٠٦]عاد أدراجه إلى القيروان ، فمرّ بدكالة[١٠٧] ودعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا وقاتلهم ،واستشهد من المسلمين عدد كبير ، فسمي هذا الموضع مقبرة الشهداء ، كما مرّ هسكورة[١٠٨] ودعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا أيضا فقاتلهم وشتت شملهم[١٠٩]، وهذا يفيد أن عقبة بن نافع كان حريصاً على استغلال أية فرصة لنشر الإسلام في كل بقعة من بقاع افريقيه ، فكان عقبة قوي الإيمان بدينه ، شديد الحماس لنشره ، لا يجد في حياته سعادة تعادل سعادة الجهاد في سبيل الله ، ونشر راية الإسلام .

ولما قرب عقبة بن نافع من المغرب الأدنى علم أن كسيلة الذي كان قد فرّ من عسكر المسلمين هاجم القيروان ، فأحزنه ذلك ؛ وبدأ يفكّر في مصير زهير بن قيس – الذي استخلفه عقبة على القيروان عند خروجه منها – والحامية التي معه ، لذلك عجّل العودة ؛ لينقذ ما يمكن انقاذه ، خاصة بعد ما علم بالحلف الذي عقده البربر مع الروم

للقضاء على المسلمين في افريقيه، ولما وصل مدينة طُبنة[١١٠] من أرض الزاب أذن لأصحابه بالانصراف إلى القيروان فوجأ فوجأ ثقة منه بما نال من العدو[١١١]، ولا غرابة في أن يأذن عقبة لرجاله بالإسراع إلى أهليهم وذراريهم[١١٢] بعدما أنجزوا من الأعمال في تلك الحملة التي استمرت أكثر من سنة[١١٣]، خاصة وأنم كانوا محملين بالغنائم والسبي .

ووقع الصدام بين البربر وزهير بن قيس في القيروان ، وتمكن زهير - الذي كان في ستة آلاف - من الحاق الهزيمة بالبربر الذين كانوا في ثلاثين ألفاً[١١٤] وهذا يدل على أن البربر لم يأتوا القيروان للحرب ؛ وإنما لجذب عسكر عقبة إليها ، حتى إذا انصرف الجميع عنه وبقي في قّله من أصحابه تركوا القيروان وهاجموه وقتلوه مع من بقي معه .

وكان على من بقي مع عقبة بن نافع من البربر أن ينفذوا المرحلة الأخيرة من المؤامرة التي رسمها كل من كسيلة والبربر والروم ، فيقنعوا عقبة مع أتباعه المسلمين بالاتجاه إلى الجنوب الغربي للقيروان ناحية تهوذة ، حتى لا يستطيع جنده العثور عليه إذا هو استنجد بم[١١٥].

وكانت عيون الروم في هذه النواحي تراقب عن كثب تحركات عقبة وأتباعه ، فعلموا أنه في ثلاثمائة فقط[١١٦] فراسلوا كسيلة الذي كان يقيم في القيروان ، فتحرك مع البربر وانضم الروم إليهم فأصبحوا خمسين ألفاً [١١٧] فزحف الجميع ليلاً حتى نزلوا بالقرب من عقبه [١١٨] وحين رأى هذه الجموع الغفيرة أيقن بقرب نهايته ، ومع ذلك زحف إلى خصمه كسيلة الذي تنحى عنه وانحرف عن طريقه حتى وصل أمام حصن رومي قديم عند تهوذة كان الروم قد عسكروا فيه وتجهّزوا للقاء عقبة ، واجتهد الروم في اجتذاب عقبة إلى حصنهم ، وطمعوا فيه وأغلقوا أبوابه وشتموه ورموه بالنبل والحجارة ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى[١١٩]، وأوضح النويري[١٢٠] خطة كسيلة وحلفائه الروم قائلاً: "زحف عقبة إلى كسيلة فتنحى عنه فقال البربر له : لم تنحيت من بين يديه ونحن في خمسه آلاف،

فقال إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان ، ومدد الرجال قد افترق عنه، فإذا طلب افريقيه زحفت إليه ... " .

وواضح أن جموعاً من البربر والروم كانت ترع إلى صفوف كسيلة كل يوم فيزداد جنده ، بينما جند عقبة في تناقص وقد انقطع طريق الامدادات إليه بانحرافه إلى تهوذة ، وأصبح من العسير وصول مدد إليه ، وكان طبيعياً ألاّ يجزع المحارب العريق وجماعة فرسانه الصغيرة . - وفيهم أبو المهاجر دينار - من كثرة العدو وهوله ، فقرروا مواجهة المحنة ببطولة الشجعان ، فـ لوا عن خيولهم وكسروا أجفان سيوفهم استطابة للموت على الأسر وحّباً في نيل الشهادة في سبيل الله وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً ، كما تؤكد ذلك معظم الروايات[١٢١]، علماً بأن بعضها[١٢٢] يذكر أنه أسر نفرٌ يسير ، فخلّصهم صاحب قفصه[١٢٣]، وبعث بهم إلى القيروان[١٢٤].

لا شك أنها كانت مؤامرة رسمت خطتها بدقة منذ خروج كسيلة من تلمسان سنة ٦٢هـ = ٩٨١م . إلى بداية خروجه عليه سنة ٦٣هـ = ٦٨٢ م ، فمن غير المعقول أن يجتمع لكسيلة خمسين ألفاً خلال يوم أو شهر ، ولابد أن الروم كانوا يمثلون نسبة كبيرة ، لا تقل عن عشرين ألفاً ، حيث زحف كسيلة في الثلاثين ألفاً - الذين دخل بهم القيروان وقُتل منهم من قتل - وانضم معهم في الطريق الروم للحلف الذي كان بينهم، والذي يدعو إلى مقاومة المسلمين العرب في افريقية[١٢٥]، وربما استطعنا بذلك أن نفسر المقاومة الشديدة التي لقيها عقبة في مسيره[١٢٦]، وهي مقاومة من البربر والروم والتي لم يسبق لها مثيل فيما سلف من غزوات ، ناهيك عن الحقد والكراهية التي كان يكّنها البربر في نفوسهم للمسلمين ؛ باعتبارهم سيطروا على أرضهم وقتلوا منهم مقتله عظيمة حتى ملّوا كما أفادت بعض المصادر بذلك[١٢٧].

وتقف المصادر في الحديث عن دور كسيلة في الحرب بين الجانبين ، لكن الراجح أن كسيلة كان يلعب دوراً خطيراً ، فكان الرأس المدّبر الذي جمع جموع البربر ؛ لتكون

ضربتهم للمسلمين قوية جداً ، كما أنه الذي قام بقتل عقبة بن نافع بنفسه[١٢٨]، وهذا يدعونا إلى القول بأن كسيلة لم يتمكن الإسلام من قلبه ، بل ويرى بعض المؤرخين المحدثين[١٢٩]: أنه ارتد عن الإسلام "، إذ لا يمكن لمن بقي على إسلامه أن يدخل حرباً غير متكافئة ضدّ إخوانه المسلمين ، كما أنه لا يتصور منه أن يوافق البربر والروم على إهانة عقبة بالشتم ورميه بالحجارة والنبل وهو يدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم[١٣٠]، وهل يعقل لمن كان في قلبه ذرة من الإيمان أن يرى عقبة بن نافع يترجّل عن فرسه ويصلي ركعتين قبل الاستشهاد ثم يبادر بقتله بنفسه مع من بقي معه من المسلمين[١٣١] .

أما عن أبي المهاجر دينار فالملاحظ أن الخلافات القديمة بينه وبين عقبه لم تقف حاجزاً عن تقديمه النصيحة لعقبة ، فقد أشار عليه باصطناع كسيله ونبّهه إلى سوء سياسته معه وذكّره بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع جبابرة العرب واستئلافه لهم[١٣٢]، كما أن هذه الخلافات الشخصية تناساها أبو المهاجر أمام الصالح العام للمسلمين ، فهاهو قد تيسرت له أسباب النجاة وقت الحرب بين الطرفين ؛ لما بينه وبين كسيلة من مودة[١٣٣]، لكنه أبى أن يرجع سالماً ويهلك عقبة ، فطلب الشهادة كما طلبها عقبة وقال "... وأنا أغتنم الشهادة مثلك"[١٣٤] وهذا كله يحسب لأبي المهاجر عند الله وفي سجل تاريخه .

موقف مسلمي البربر من تهوذة :

يعتقد البعض[١٣٥] أن قتل كسيلة لعقبة وأصحابه أفسد ما كان أثمر من جهود الفاتحين قبله ، وهذا يعني أن وقعة تهوذة قضت على كل أثر للمسلمين فيما فتحوه من البلاد ، لكن الواقع أنه ربما كان قاضياً على بعض الأثر السياسي ؛ لأن عمل عقبة لم يكن سياسياً بقدر ما هو دينياً .

والمسلمون في أفريقية فئتان ، فئة أسلمت حين رأت بناء عقبة للقيروان وطرده للحيات والسباع ...[١٣٦] وأخرى سمعت أخباره وسارت معه وأسلمت على يديه ثم

نقلت أخباره إلى طوائف بعيدة من البربر ، فأسلموا أيضاً أو ربما مالوا إلى الإسلام ، وكانوا جميعاً على أهبة الاستعداد للوقوف إلى جانبه ، لكنهم كانوا متخوفين من كسيلة وحلفائه الروم ، وبعد ما سمعوا بحادثة تهوذة وما نجم عنها ثارت حميتهم وأحدثوا ضجة كبرى في نواحي أفريقية، وأعلنوا سخطهم وغضبهم وعدم رضاهم بما أقدم عليه كسيلة من قتله لعقبة والمسلمين فاهتزت البلاد بسببهم وأصبحت ناراً كما يقول المالكي[١٣٧]، وبناءً على ذلك يمكن اعتبار فاجعة تهوذة مكسباً عظيماً للمسلمين العرب فيما بعد ، فقد أثارت حنق مسلمي البربر على كسيلة، واستدرت عطفهم على العرب ، وجعلتهم فيما بعد يشعلون الثورة ضدّ قائدهم البربري كسيلة[١٣٨].

وإذا كان هذا حال المسلمين من غير العرب ، فمن باب أولى أن يكون هذا المصاب ترك بالغ الأثر في نفوس المسلمين العرب داخل أفريقية وخارجها ، ولعل في كلام الدباغ[١٣٩] حين قال "وعظم البلاء على المسلمين" ما يشير إلى ذلك .

انسحاب المسلمين من القيروان سنة ٦٤هـ = ٦٨٣م :

تركت أنباء تهوذة أثراً كبيراً في نفوس المسلمين من أهل القيروان ، وجعلتهم في حيرة من أمرهم ، وتنازعهم أمران : الأول : ضرورة البقاء في القيروان والتصدي لكسيلة وأتباعه ، وطلب الشهادة في سبيل الله تعالى ، والثاني : سرعة الانسحاب من القيروان ؛ لأنهم لا طاقة لهم بقتال هذه الجموع الكثيرة ؛ لأنهم سيدخلون حرباً خاسرة ، ويكون مصيرهم كمصير عقبة بن نافع ومن قتل معه .

قيل أن التابعين وفي مقدمهم حنش الصنعاني ، نظروا في هذا الظرف العصيب الذي يمرّ به المسلمون وقلّبوا الأمور ، ورأوا أن الصالح العام للمسلمين لا يتعارض مع الإيمان بالله تعالى وبقضائه وبقدره ، وأن الحكمة تقتضى المبادرة في الرجوع إلى مصر - على الأقل تلك الفترة الحرجة ؛ للاستعانة بقوات أخرى ، ليمكنهم مواجهة كسيلة وحلفائه بها، وانطلاقاً من ذلك بادر حنش الصنعاني إلى نصيحة زهير البلوي وطلب منه الانسحاب العاجل مع بقية الجيش الإسلامي إلى الشرق ؛ حتى لا يتعرض الجميع لسيوف البربر

وتكثر الخسائر في الأرواح والمعدات ، وقال في خطابه لهم : "يا معشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقة فليتبعني"[١٤٠].

وقيل أن زهيراً خطب في الناس - بعد كارثة تهوذة مباشرة - فقال : " يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة وقد منّ الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك "[١٤١]. وهذا هو الأصل ؛ إذ لا يمكن لأمير مثل زهير البلوي أن يصاب بالرعب أو الذعر والخوف ثم يدعو الناس إلى العودة إلى مصر كما أفادت بعض المصادر[١٤٢]، بل يحث المسلمين على طلب الشهادة . يؤكد ذلك ابن الأثير[١٤٣] بقوله :

"فلما علم زهير بخبر عقبة بن نافع في تهوذة اعتزم القتال ... " .

وكان من الطبيعي أن يميل الناس إلى رأي حنش الصنعاني ويتبعوه[١٤٤]، فقد رأوا بأعينهم كثرة جند كسيلة وأتباعه - قبل مقتل عقبة بن نافع - وعلموا أنهم قلة قليلة إذا ما قورنوا بتلك الحشود [١٤٥] ، وعلموا أن الجنود العائدون إلى القيروان بعد الغزو الطويل مع عقبة بن نافع كانوا مجهدين جداً ، وعاجزين عن القيام بأي عمل آخر فترة من الزمن[١٤٦] وجاءت فاجعة تهوذة فأضافت الفزع إلى الإجهاد ، وجعلتهم يميلون إلى العودة ميلاً شديداً ؛ لأن لقاءهم بالعدو يعني إلقاء النفس إلى التهلكه ، والله تعالى نهى عن ذلك في كتابه الكريم بقوله : ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[١٤٧].

أما زهير البلوي وأهل بيته فقد تخلفوا في القيروان أياماً قليلة ثم ساروا خلف الناس[١٤٨]؛ إذ لم يكن لهم أن يواجهوا جحافل البربر والروم ، وربما كان انتظارهم تلك الأيام لجمع ما تبقى لديهم من متاع ومستلزمات الـ ول في مكان آخر (يعني برقه) ومن ثم الاطمئنان على تحرك بقية الناس الموجودين في القيروان ، علماً أنه كان هناك من تخلف بعدهم من المسلمين لأهداف سنبينها لاحقاً .

وترتب على انسحاب المسلمين العرب من القيروان أن أصبح المكان مهيئاً لدخول أي قوة فيها والسيطرة التامة عليها ، ولهذا لم تستغرق سيطرة كسيلة وحلفائه عليها إلاّ زمناً يسيراً ؛ لأنه لا يوجد فيها حامية تدافع عنها .

يظن البعض[١٤٩] أنه نجم عن انسحاب الجيش الإسلامي إلى برقة خروج أفريقية من أيدى المسلمين العرب ، وضياع جهود أربعين سنة قضاها المسلمون في فتح هذه البلاد، لكن الأمر لم يكن كذلك ؛ فلربما خرجت افريقيه من يد الجيش الإسلامي لمدة لا تتجاوز أربع سنين، ولكنها لم تخرج من يد المسلمين [١٥٠]، لأن الإسلام قد انتشر على يد الفاتحين والدعاة الذين كانوا يسيرون في صفوفهم ، ومن ثم ترك هؤلاء بأفريقيه آثاراً لا تمحى من جهة الدين واللغة ونشر الفضائل[١٥١] ، فأسلمت قبائل كثيرة من البربر وظلت البقية الباقية من الجيش في برقة؛ استعداداً لمعاودة الكرّة على كسيلة والبربر وتقليم أظافرهم[١٥٢] ، ولعل انقلاب افريقيه ناراً[١٥٣] بعد استشهاد عقبة بن نافع والمسلمين يؤكد ذلك ؛ لأن هذا يعني أن جماعات كثيرة في أفريقية أقلقها خبر مقتل عقبة والمسلمين ، كما أغضبها خروج المسلمين من القيروان، ولابد أن هذه الجماعات إما بربراً مسلمين أو أنصاراً لهم[١٥٤] .

استيلاء كسيلة على القيروان (٦٥- ٦٩ هـ = ٦٨٤ - ٦٨٨م) :

بات الطريق إلى القيروان مفتوحاً أمام كسيلة وأتباعه ، إذ لم يبق بها إلاّ قلّة من المسلمين معظمهم من التجار[١٥٥] والشيوخ والنساء والأطفال[١٥٦]، وبعض البربر ، كما بقي فيها من البربر كثير بعضهم من نفوسه وبعضهم من أهل درن والآخرون من زناته وكلهم من أهل القيروان ويميلون إلى جانب المسلمين[١٥٧].

ولابد أن عيون كسيلة نقلت إليه هذه الأخبار ، والتي شجعته على التقدم إلى القيروان ، وقدمها بالفعل سنة ٦٥هـ=٦٨٤م ، ولما دخلها لم يجد فيها مقاومة تذكر ،

واستولى عليها ، وهرع الناس إليه يسألونه الأمان[١٥٨]، وتحيّر في أمرهم : إمّا أن يتخلص منهم (من المسلمين العرب والبربر) وتصفوا له القيروان كاملة ، أو يعطيهم الأمان جميعاً (على الأقل في هذه الفترة الحرجة التي اشتعلت فيها أفريقية ناراً) ولعله مال إلى الأمان لأسباب منها :

- أنه في هذه الفترة أصابه التعب والإرهاق بعد ذلك العناء الذي مرّ به مع أتباعه البربر بدءاً من تلمسان ووضعه في القيود ومروراً بإهانته بذبح الغنم وسلخها ، وانتهاءً بحادثة توذة
- ومنها أنه وجد أن هناك صلة قرابة بين من أسلم من البربر في القيروان وبين قبائلها الضاربة حولها[١٥٩]، وقتله لهم سيؤلب عليه قبائل البربر القوية التابعة لهم ، ويعارضون حكمه ، بل وربما كانت نايته على أيديهم، وهذا يفيد أنه لو كان سكان القيروان من المسلمين العرب لما توانى كسيلة في قتلهم والقضاء عليهم كما قضى على اخوانم في توذة؛ وهذا ما يحثه عليه حلقائه من الروم[١٦٠].
- ومنها أيضاً عدم مقاومة سكان القيروان لكسيلة وجيشه ، وخروج زهير البلوي منها مما شجعه على إعطائهم الأمان .
- ولاستمالتهم إلى جانبه والانتفاع بما في أيديهم من الأموال والثروات.
- وربما أيضاً أن كسيلة بنقمة البربر عليه بعد حادثة توذة أراد أن يأمن جانبهم مع قبائلهم المتعددة ويكسب ودّهم وطاعتهم على الأقل في هذه الفترة الحرجة ؛ حتى لا تزيد نقمتهم عليه، وتكون العاقبة وخيمة .
- ومنها أنه كان يخطط بالاتفاق مع الروم - لطرد المسلمين العرب من افريقيه كلها[١٦١] وليس من صالحه أن يُغضَب سكان القيروان وقبائلها الضاربة حولها : فأراد أن يضمن انضوائهم تحت لوائه إذا ما تحرك لتحقيق هذا الهدف . لهذه الأسباب جميعاً مال كسيلة إلى الأمان لأهل القيروان .

ولما دخل كسيلة القيروان عاش فترة استرخاء امتدت خمس سنوات (٦٥ - ٦٩هـ = ٦٨٤ – ٦٨٨م) ، فقد انشغل المسلمون بوفاة الخليفة يزيد بن معاوية[١٦٢] وخلفه ابنه معاويه الثاني [١٦٣]، الذي لم يمتد عهده أكثر من أربعين يوماً ثم توفي بعدها[١٦٤]، وظلّ عرش الخلافة شاغراً ستة شهور ، قام خلالها عبد الله بن الزبير بالدعوة لنفسه في الحجاز ٦٤ – ٧٣هـ = ٦٨٣ - ٦٩٢م) وبايعه أهل الحجاز والعراق وخراسان ومصر[١٦٥] ، وفي شهر ذي القعدة من سنة ٦٤هـ = ٦٨٣م انعقد مؤتمر الجابية وفيه تمت بيعة مروان بن الحكم (٦٤-٦٥ هـ = ٦٨٣-٦٨٤م) الذي حارب المضريه الذين كانوا بزعامة الضحاك بن قيس في موقعة مرج راهط في شهر محرم من سنة ٦٥هـ =٦٨٤م[١٦٦] وانتصر مروان بن الحكم عليهم، وكان ذلك إيذاناً ببوب ريح العصبية القبلية في أنحاء البلاد ، كذلك شغل مروان بن الحكم بمحاربة أتباع عبد الله بن الزبير في مصر والحجاز ، ونجح في إعادة مصر إلى سلطان الخلافة الأموية ، ولكن لم يطل به العهد للقضاء على حركة الزبيرية في الحجاز ومات في شهر رمضان سنة ٦٥هـ = ٦٨٤م[١٦٧] قبل أن يقوم بأي عمل حاسم في أفريقيه وخلفه ابنه عبد الملك سنة ٦٥ - ٨٦هـ = ٦٨٤ - ٧٠٥م الذي ولي الخلافة الأموية والبلاد قد مزقتها العصبيات القبلية والفتن قد اجتاحتها من كل مكان.

ولم يكن باستطاعة الخلافة الأموية في ظل هذه الظروف أن تجنّد لكسيلة وحلفائه جيوشاً تطردهم با من القيروان ؛ لانشغالها بإقرار أمور الدولة القريبة منها ، ولذا نجد الخليفة عبد الملك بن مروان - على سبيل المثال - اضطر إلى مصالحة ملك الروم ، بإعطائه ألف دينار كل جمعة ، مقابل الكفّ عن مهاجمة المسلمين من جهة الشام[١٦٨]، حتى تدأ الأوضاع الداخلية في البلاد .

وقد توقفت المصادر عن ذكر حال القيروان خلال سيطرة كسيلة عليها (٦٥ - ٦٩هـ = ٦٨٤ - ٦٨٨ م) ، مما يدل على استقرارها له لكن بقيت فئات من البربر إما مسلمين أو مالوا إلى الإسلام - ناقمة على كسيلة ؛ لقتله عقبة والمسلمين في تهوذة ، وطرده لهم من القيروان ، إلاّ أنهم رأوا أن الحكمة تقضي عدم إثارة العداء ضد كسيلة وحلفائه في هذه الفترة العصيبة ، فقد أعطاهم الأمان على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، كما أن الأوضاع التي تمرّ بها الخلافة الأموية لا تساعدهم على ذلك .

موقف زهير بن قيس من كسيلة وحلفائه (واقعة مَمْس - أو مَمْش)[١٦٩] سنة ٦٩هـ =٦٨٨م:

كان زهير بن قيس يرغب في عدم الخروج عن القيروان عند تقدم كسيلة إليها ؛ لأنها غدت بلادهم منذ أن فتحها عقبة بن نافع وبنى فيها المساجد والمنازل ، وصار لهم فيها حقوق كسب بعضها بمعاهدات ثابتة ، ولهم فيها طوائف كبيرة من المسلمين أو من يميل كل الميل إلى عودة المسلمين ، ولكنه اضطر للخروج منها مع من خرج من المسلمين، واستقرّ في برقة ، وهذا عين العقل ؛ لأن اشتباكه مع العدو وهو لا يملك القوة الكافية لإحراز النصر يؤدي إلى كارثة عسكرية تحلّ بجيشه دون مبرر ولا جدوى[١٧٠].

ومن برقة بدأ زهير يعدّ العدة للعودة إلى القيروان لإرجاعها إلى السيطرة الإسلامية؛ لأنها بلادهم وليتخلص الشعب الأفريقي الإسلامي الناشئ من يد مستبد ككسيلة ، ومنذ وطئت قدماه أرض برقه كاتب الخليفة يزيد بن معاوية ، إلاّ أنه فوجئ بخبر وفاته وانفتاح أبواب الفتنة من كل جهة ،وبناءً على هذه التطورات الأخيرة رأى التريث في الأمر وعدم الاستعجال، وبقي وضع المسلمين في أفريقية يؤرّقه كل حين ، فلم يتردد في إطلاع ولاة الأقاليم على أخبار أفريقية ، مما دفعهم إلى الاجتماع بخليفة المسلمين مروان بن الحكم ، حيث سألوه أن يبعث الجيوش لإنقاذ أفريقية من يد كسيلة وحلفائه وإعادتها إلى حوزة

المسلمين[١٧١] واستجاب لذلك ، إلاّ أن المنية وافته في شهر رمضان سنة ٦٥هـ = ٦٨٥م قبل أن يسّير إليها أحداً ، وعزّ على ابنه عبد الملك - رغم المشكلات التي صادفته منذ توليه الخلافة - أن يرى كسيلة وحلفائه يسيطرون على القيروان بعد ما بذل المسلمون من أجلها الغالي والنفيس، وبعد أن تشاور مع قادته والمقربين إليه فيمن يبعث إليها ، اجتمع رأيهم على تسيير زهير بني قيس ؛ لأنه صاحب عقبة بن نافع ، فقد صحبه منذ سنة ٤٣هـ = ٦٦٣م وشارك في معظم فتوح أفريقية . كما كان زهير "أعلم الناس بعقبة وأخبرهم بسيرته وتدبيره، وأولاهم بطلب دمة"[١٧٢]. ولعل اختياره دون غيره؛ لاكتسابه خبرة طويلة في شئون البربر وممارسته القتال في هذا الميدان[١٧٣] .

ويذكر المؤرخون [١٧٤] أن الخليفة عبد الملك كتب سنة ٦٩هـ = ٦٨٨م إلى زهير بن قيس وهو مقيم ببرقة يأمره بالخروج إلى القيروان لاسترجاعها من يد كسيلة ، باعتبارها بلاداً إسلامية ، وتتم الخلافة بأمرها كما تتم بالعراق والحجاز ، فبعث زهير بن قيس إلى الخليفة عبد الملك كتاباً يخبره فيه بقلة من معه من الرجال والأموال وكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، فدعا الخليفة الناس إلى الجهاد في سبيل الله ، فسار عدد كبير من أهل الشام - لم تحددهم المصادر وزوّدهم من أموال مصر فتقوى بم زهير وسار معهم نحو القيروان في ذي القعدة سنة ٦٩هـ = ٦٨٨م ؛ لأن المالكي ذكر أن زهيراً وصَل القيروان عيد الأضحى من السنة نفسها - ونزلوا جميعاً بقرية قرشانه[١٧٥].

أما كسيلة فلم يقلّ جيشه عن خمسٍ وأربعين ألفاً[١٧٦]، وهذا بالتأكيد أضعاف الجيش الإسلامي ، وبالرغم من هذا أبدى تخوفاً من المسلمين؛ لأنه خشي أن يقع بين خطرين؛ خطر داخلي متمثل في مسلمي البربر ومن يميل إليهم ، والذين قد يتحركوا ضدّه انتصاراً لزهير بن قيس[١٧٧]، وهذا يتبين من كلام كسيلة للمقربين إليه حين قال لهم : "إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة (القيروان) فإن با قوماً من المسلمين لهم علينا عهود ونحن

نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا ..."[١٧٨] . وخطر خارجي متمثل في الجيش الإسلامي القادم من برقة .

وكان كسيلة يتحاشى اللقاء بالجيوش الإسلامية داخل القيروان ، وعمل على مقابلتهم خارجها وحدّد مكان اللقاء بَمْمس ؛ لما اشتهرت به من التحصينات منذ القدم ، ولوقوعها في الجنوب الشرقي من جبال أوراس[١٧٩]، للالتجاء إليها إذا ما دارت الدائرة عليه، ولكونها تقع على ماء ، وللماء أهميته الكبيرة لجيش كجيش كسيلة - الذي يقارب الخمسين ألفاً - ، وفي هذا قال كسيلة[١٨٠] : "ولكن ن ل على موضع ممس وهي على الماء، فإن عسكرنا عظيم ، فإن هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم ، فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر، وإن هزمونا كان الجبل منا قريب" .

وكان زهير بن قيس قد وصل قرية قرشانة ، وفيها وصلته أنباء تقدم كسيلة مع جنده إلى مَمْس ، فكان عليه أن يتحرك صوب القيروان ؛ لُيطْمَئِن مَنْ فيها من المسلمين عرباً وبربراً بقدومهم وقرب الظفر بكسيلة وجيشه ، ويحثهم في نفس الوقت على المسير معه نحو كسيلة وأتباعه[١٨١]. استعداداً للقاء المصيري الذي سيحدد مستقبل الفتح في المغرب كله ، كما أوضح ذلك كسيلة في خطابه لجنده ، حيث قال : " فإن هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر .. "[١٨٢].

ووصل زهير بن قيس والجيش الإسلامي باب القيروان يوم الأحد (العاشر من ذي الحجة سنة ٦٩هـ = ٦٨٨م وأقاموا عنده ثلاثة أيام ، ثم ارتحلوا صباح الأربعاء (الثالث عشر ذي الحجة) ناحية مَمْس فوصلوها آخر النهار ، وبات الناس في مصافهم على حذر شديد ، وفي صباح يوم الرابع عشر التقى الطرفان ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وكثر البلاء في الجانبين ، ولاحت بشائر النصر للمسلمين ، وهزم كسيلة وحلفاؤه (الروم) وقتلوا قتلاً

ذريعاً [١٨٣]، مما اضطر معه كسيلة إلى الـ ول إلى ساحة المعركة ومباشرة القتال مع جنده لرفع روحهم المعنوية، لكن الله تعالى كان لكسيلة وجيشه بالمرصاد ، وقُتِل كسيلة مع من قتل من البربر[١٨٤]، وخذلهم الله جميعاً ، وردّ كيـ ـدهم في نحرهم . قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[١٨٥].

وتفرَق البربر ولحق بعضهم بالجبال القريبة منهم ، لخوفهم من القتل على يد المسلمين، وهذا يتبين من قول كسيلة "وإن هزمونا كان الجبل منا قريب"[١٨٦]. وهرب البعض الآخر إلى القلاع والحصون ، ومن بقي اضمحل شأنه[١٨٧]، وطاردهم زهير بن قيس إلى حدود طنجة[١٨٨]، مما دفع بالروم إلى أن يحنقوا على المسلمين ، حيث هاجموا برقة، وقتلوا من المسلمين عدداً كبيراً ، فاستشهد زهير وكل من كان معه من المسلمين رضي الله عنهم سنة ٧٦هـ = ٦٩٥م[١٨٩].

وترتب على هزيمة كسيلة وحلفائه أن قضى زهير والجيش الإسلامي على مقاومة البربر البرانس ، الذين حملوا لواء المقاومة ، وقاضيه لآمال الروم في الاستعانة بأهل البلاد على المسلمين العرب[١٩٠].

كما أن هذا الانتصار أخاف البربر بصفة عامة ، فهابوا قوة المسلمين ، وأصبحوا يحسبون لها ألف حساب .

وعاد المسلمون إلى قواعدهم في أفريقية مرة أخرى (القيروان) لتكون نقطة الارتكاز في الفتوح التالية بدلاً من برقة ، فقد اتخذها حسان بن النعمان حاضرة ، وانساح منها يحارب البربر والروم منتصراً عليهم .

كما ترتب على نهاية كسيلة دخول عدد كبير من أتباعه في الإسلام ، لما رأوه بعد هزيمته ومقتلهم وأسرهم من معاملة حسنة (دعوة إلى الإسلام) من قبل زهير بن قيس، فأعتقهم وحررهم فدخلوا في دين الله أفواجاً .

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من بعثه الله بالمعجزات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أولي الفضل والمكرمات ، وبعد :

فإنه بعد إلقاء الضوء على شخصية كسيلة وموقفه من الفتح الإسلامي للمغرب نخلص إلى النتائج التالية :

أولاً : بيان سياسة كسيلة الكاذبة مع المسلمين ، حيث أوهمهم بقبوله الإسلام ، وكان قد أعلنه ؛ محافظة على نفسه وأتباعه البربر ؛ للوصول إلى الهدف المنشود الذي كان يسعى له ، وهو السيطرة على الغرب كله إلى آخر الدهر[١٩١].

ثانياً : إظهار تفوق كسيلة في بعض الفترات على المسلمين بواسطة الخداع والغدر، حين أتلف الآبار التي خلّفها عقبة بن نافع في طريقه لفتح المغرب من غير أن يعلم المسلمون بذلك ؛ رغبة منه في تضييق الخناق على الجيش الإسلامي ، عند عودته من ذلك الطريق ، باعتبار أن الماء عصب الحياة .

ثالثاً : نجاح أبو المهاجر دينار - خلال ولايته - في جذب البربر إلى جانبه بمصانعته لزعيمهم كسيلة وبالتالي ضمن انضوائهم تحت لوائه وعدم انحيازهم إلى الروم ، فساروا في صفوف الجيش الإسلامي يقاتلون ويفتحون البلاد .

رابعاً : نفي الشبه المغرضة التي قيلت في عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار بأن كلاً منهما كان يحقد الآخر ، ويحاول الحط من شأنه ، فكلاهما عمل لخدمة الإسلام وأهله ، وإذا وجدت بعض الخلافات الشخصية فتكاد تكون طبيعة بين البشر ، وهي لا

تمحي حسناتم التي قدموها ، وإن نصح أبو المهاجر دينار المستمر لعقبة بن نافع خير دليل على ذلك .

خامساً : لا خلاف في أن عقبة بن نافع أساء معاملة كسيلة حين قيده بالحديد وأمره بذبح الغنم وسلخها ، لكن يشفع له حرصه على الوجود الإسلامي في أفريقية وأن ما فعله بكسيلة كان لتهديد البربر إذا ما فكروا في الانقلاب على المسلمين .

سادساً : كان يسير في صفوف الجيوش الإسلامية طائفتان من البربر : بتر البربر، وكانوا أنصار للمسلمين ؛ لانتشار الإسلام فيهم ، وبرانس البربر ، وأظهروا إسلامهم وأبطنوا الكفر ، وحملوا لواء المقاومة مع كسيلة ، يمدّهم الروم بالعون[١٩٢]، وأظهرت في موقعة تودة حقيقتهم التي راح ضحيتها عقبة بن نافع مع عدد كبير من المسلمين .

سابعا : أن كسيلة خلال استيلائه على القيروان أمّن أهلها على أنفسهم وأموالهم ؛ تخوفاًمنهم لا محبة فيهم ؛ لوجود قرابة بينهم وبين القبائل المقيمة حول القيروان ، وخشيته أن يثوروا عليه انتصاراً لقراباتم ، ولو كان أوضاع الخلافة الأموية مستقرة لما بقي كسيلة مسيطراً على القيروان شهراً واحداً .

ثامناً : تمكن المسلمون - بفضل الله - من القضاء على التحالف بين البربر والروم ، وهزموهم في عدة مواقع حتى أجبروهم على الانسحاب إلى طنجة[١٩٣] .

تاسعاً : عزّز انتصار المسلمين على كسيلة وجيشه من قوة الإسلام والمسلمين في أفريقية ، فقد أعلنت طوائف كثيرة من البربر إسلامها بعدما كانت تكتمه خوفاً على نفسها ، كما دخل الإسلام جماعات جديدة رأت عزّة الإسلام وذلّة أعدائه ، فدخلوه طواعية وتذوقوه ، وأصبح منهم العلماء والقادة وغيرهم[١٩٤].

عاشراً : أن من أسلم من البربر خلال هذه الفترة رفع الإسلام من شأنه ، وأحسّ بذاته ، بعد أن كان يعامل من قبل الروم على أنه من طبقة العبيد والارقاء .

حادي عشر : ترتب على مقتل كسيلة استقرار المسلمين في المغرب ، وبداية ما يعرف بالفتح المنظم لبلاد المغرب على يد حسان بن النعمان وموسى بن نصير وغيرهم ، مما مهّد لفتح الأندلس بعد ذلك .

وفي ختام هذا الجهد المتواضع أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها (بغداد ، ١٩٢٠ م) ص ١٩٨، محمد بن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (مطبعة بريل - لندن ، ١٩٤٨ م) ص ٢٨ ، أحمد عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب (مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٧) م ١ جزء ٢٢ ، ورقه ٧١ أ ، أحمد بن أبي الضياف ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (تونس ، ١٩٦٣م) ص ٨١، وقيل (كسيلة) علي بن الأثير الجزري ، أسد الغابة في معرفة الصحابة (طهران ، المطبعة الإسلامية) ج ٣ ص ٤٢١ ، عبد الرحمن بن محمد الدباغ ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (الطبعة الثانية ، مصر ، ١٩٦٨ م) ج ١ ص ٤٦ ، وقيل (أكسيل) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم العمري (الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ) ص ٢٥٣ ، وقيل (كسيل) ابن الآبار القضاعي ، الحلّة السيراء (بيروت ، ١٣٨١هـ) ص ٤٦٥ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٨ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ص ٢٨ ، وقيل (ليوم) إبراهيم بن القاسم القيرواني ، تاريخ أفريقية والمغرب ، تحقيق الكعبي ، تونس ص ٤٩ ، وقيل (كَمْرمْ ، لَمْرم) ابن الأثير / أسد الغابة ج ٣ ص ٤٢١ ، الكامل في التاريخ (الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٧هـ) ج ٣ ص ٤٥٢ ، وقيل (لزم) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ (بيروت ، ١٣٩٩هـ) ج ٦ ص ١٤٦، وقيل (لهزم) محمد أحمد التميمي ، المحن (الطبعة الأولى، قطر، ١٤٠٣هـ) ص ٢٧١ .

(٣) عبد الله المالكي ، رياض النفوس (الطبعة الأولى ، تونس ، ١٣٧٠ هـ) ص ٢١ ، الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٦ .

(٤) أحمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ط ٣ ، ١٩٦٩م) ص ١١٩ ، حسن محمود ، ليبيا بين الماضـي والحاضر (ليبيا ، ١٩٦١ م) ص ١١٠ .

(٥) ابن عذاري ، البيان المغرب ص ٢٨ .

(٦) الزاوي ، تاريخ الفتح العربي ص ١١٩ .

(٧) ولد أورب بن برنس ، ومنهم : بجاية ، ونقاسة ، ونجدونه ، وهكوجَه ، ومزياته ، ورغبونة ، وديقوسة (ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٤٦ ، وانظر : أصول المغاربة ، بحث في مجلة البحث العلمي ، للتقي العلـوي (الرباط ، المعهد الجامعي للبحث العلمي ١٩٨٠م) ص ٤٨ وما بعدها .

(٨) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ج ٦ ص ١٤٦ ، مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث (الجزائر ، ١٩٦٣م) ج ٢ ص ٢٨ .

(٩) تعني لفظة الكاهنة أو الكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسـرار ، وظهرت حرفة الكهانة قبل الإسلام ، فلقد كانت فاشية في الجاهلية وخاصة عند العرب. انظر : (حركـة الكاهنة في المغرب وموقفها من الفتح الإسلامي) بحث نشر في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد العشرون ، رمضان ، ١٤١٨هـ) .

(١٠) يعتقد البعض على رأي ضعيف أن هذا الاسم يعتبر صفة أو لقب أطلق عليها ؛ لاتصافها بالدهاء وهو الصفة الأساسية عند السحرة والمشعوذين (سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال (القاهرة ، ١٩٧٩م) ج ١ ص ٢١٧ ، وقيل (دهيا) حبيب الجنحاني، القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ، ص ٤١.

(١١) ... ابن مصكسري بن أفرد بن وصيلا بن جراد (ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ، ج ٦ ص ١٠٩ ج ٧ ص ٩ ص ١٠٩ ، أحمد الطرابلسي ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب (الباب العالي ، ١٣١٧هـ) ص ٣٨٠ .

(١٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٩٨ ، القضاعي ، الحلة السيراء ، ص ٤٦٥ .

(١٣) سورة : الأحزاب ، آية ٥ .

(١٤) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ج ٦ ص ١٠٩ .

(١٥) تقع الأوراس على بعد نحو ثمانين ميلاً من بجاية وستين ميلاً من قسنطينه ، وهي مفصولة عن الجبال الأخرى ، وممتدة على طول نحو ستين ميلاً ، تتاخم الأوراس جنوباً صحراء نوميديا ، وشمالاً بلاد مسـيلة وسـطيف ونكاوس وقسنطينة (الحسن بن محمد الفاسي ، وصف أفريقية ، ترجمة محمد الحجي (الطبعة الثانية، بيروت ، ١٩٨٣م) ج ٢ ص ص ١٠٢ ، ١٠٣) .

(١٦) قاعدة المغرب الأوسط ومدينة عظيمة فيها آثار للأول كثيرة تدل على أنا كانت دار مملكة لأمم سالفة ، وبينها وبين وهران مرحلتان (الفاسي ، وصف أفريقية ج ٢ ص ٧ وما بعدها، محمد عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس (الطبعة الثانية، بيروت ، ١٩٨٤م) ص ١٣٥ .

(١٧) كان لها صنم من خشب تحمله بين يديها على جملها الخاص بها (المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٣٥) .

(١٨) ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ص ٢٥١ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢١ ، أحمد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصري (الدار البيضاء ، ١٣٧٣هـ) ج ١ ص ٨٠ .

(١٩) الرقيق ، تاريخ افريقية والمغرب ص ٥٨ ، وقيل اسمهما : يفرن ويزديان (سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ج ١ ص ٢٣١) .

(٢٠) ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ١٤٦ ، السلاوي ، الاستقصا ج ١ ص ٨٣ ، الدباغ ، معالم الايمان، ج ١ ص ٥٣ .

(٢١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٩٨ .

(٢٢) النويري ، ناية الأرب م ١ ج ٢٢ ورقة ٧٣ .

(٢٣) ابن أبي الضياف ، إتحاف أهل الزمان ص ٨١ .

(٢٤) ابن بارزت بن بزريات ، وحكم هذا في البربر ثلاثاً وسبعين عاماً (ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ج ٦ ص ١٤٦) .

(٢٥) مدينة مشهورة من مدن المغرب الأوسط على طريق المسيلة من تلمسان ، وهي مدينتان قديمة ومحدثه وتاهرت تعني اللبوءة بالبربرية ... (ياقوت الحموي ، معجم البلدان (بيروت ، ١٤٠٤هـ) ج ٢ ص ٧، الحميري ، الروض المعطار ص ١٢٦ ، رابح بونار ، المغرب العربي تاريخه وثقافته (الجزائر ، ١٩٦٨م) ص ١٦ .

(٢٦) مدينة على البرّ الأعظم من المغرب ، بينها وبين تلمسان ليلة واحدة وهي مدينة صغيرة على ضفة البحر ، وأكثر أهلها تجاراً (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ص ٣٨٥ ، الحميري ، الروض المعطار ص ٦١٢) .

(٢٧) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، (القاهرة ، ١٣٦٦هـ) ص ١٦٦ .

(٢٨) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ، ج ٦ ص ١٤٦ .

(٢٩) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٦٢ .

(٣٠) ابن خلدن ، العبر وديوان المبتدأ ، ج ٦ ص ١٤٦ .

(٣١) قائد فاتح كان مولى لبني مخزوم ، ولما ولي مسلمة بن مخلد الأنصاري مصر وأفريقية ، استعمله على أفريقية بدلاً من عقبة بن نافع سنة ٥٥هـ / ٦٧٤ م ، واستشهد مع عقبة بن نافع في معركة توذة بأرض الزاب

سنة ٦٣هـ / ٦٨٢م (السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٠ ، حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ١٥٦ - ١٧٦ ، الزركلي ، الأعلام ج ٣ ص ٦.

(٣٢) هو أبو يحيى عبد الله بن سعد بن أبي السرح القرشي العامري ، فارس بن عامر بن لؤي ، أسلم وحسن إسلامه ، شهد فتح مصر ، وولاه عثمان - ر - ولايتها ، ثم غزا أفريقية ، توفي سنة ٣٧هـ / ٦٥٧م . (المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٤٤ ، ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٩ ، محمد بن أبي دينار ، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام – الطبعة الثالثة ، تونس ، ١٣٨٧هـ - ص ٢٦ - ٢٧) .

(٣٣) مدينة بالمغرب تبعد عن تونس سبعين كيلو متراً ، وكانت أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجارة وأموالاً وأحسنها منازل وأسواقاً ، بناها عقبة بن نافع سنة ٥٣هـ / ٦٧٢م ، واتخذها قاعدة للمسلمين (ابن حوقل النصيبي ، صورة الأرض (القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي) ص ٩٤ ، عبد المؤمن بن عبد الحق ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (ط ١ ، بيروت، ١٣٧٣ هـ) ج ٣ ص ١١٣٩ .

(٣٤) .. بن عبد القيس الأموي القرشي ، من كبار القادة في صدر الإسلام ، ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولا صحبة له ، بنى مدينة القيروان ، وولاه معاوية بن أبي سفيان افريقية سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م ، ثم عزله وولاه ابنه يزيد على المغرب سنة ٦٢هـ / ٦٨١م، ففتح مدناً عديدة ، وفي عودته قتله البربر والروم في تهوذة من أرض الزاب سنة ٦٣هـ /٦٨٢م (ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ١٩ ، السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٨) .

(٣٥) مدينة كبيرة بأرض المغرب على ساحل البحر ، وقصبة بلاد أفريقية ، أصلح بلادها هواءاً وأطيبها ماءاً وأكثرها خيراً (عبيد الله ابن خرداذبة ، المسالك والممالك (مطبعة بريل ، ١٨٨٩م) ص ٨٧، زكريا محمد القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، (بيروت ، دار صادر) ص ١٧٣) .

(٣٦) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٢٠ ، وهي على بعد ميلين مما يلي طريق تونس (ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٢ .

(٣٧) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٢ ، النويري ، نهاية الأرب ، م ١ ج ٢٢ ورقة ٧٠ أ.

(٣٨) يكنى أبا سعيد ، ولد سنة (١هـ/٦٢٢م) ، وأول من جمعت له مصر والمغرب في عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان وصدر من خلافة ابنه يزيد ، وهو أول من بنى المنائر للأذان للصلاة في المساجد ، مات بالمدينة سنة ٦٢هـ /٦٨١م (محمد يوسف الكندي ، الولاة وكتاب القضاة (طبعة القاهرة) ص ص ٣٧ ، ٣٨ ، أحمد العسقلاني ، الاصابة في تمييز الصحابة (القاهرة ، ١٤١٤هـ) ج ٩ ص ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٣٩) البيان المغرب ج ١ ص ٢٢ .

(٤٠) نهاية الأرب ، م ١ ج ٢٢ ورقه ٧٠ أ .

(٤١) عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الاسلامي (الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٨٢ م) ص ١٢٨.

(٤٢) ناية الأرب ، م ١ ج ٢٢ ورقة ٧٠ أ .

(٤٣) قيل أن أبا المهاجر "حين سار إلى تلمسان لم يستخلف على قيروانه أحد أو لم يبق فيها إلاّ شيوخ ونســاء" (المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٢١) .

(٤٤) المالكي ، رياض النفوس ص ٢١ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٨ ، الدباغ ، معالم الايمان ج١ ص ٤٦، مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث (الجزائر ، ١٩٦٣م) ص ٢.

(٤٥) عبد الوهاب منصور ، قبائل المغرب (الرباط ، ١٩٦٨م) ج ١ ص ١١١ .

(٤٦) سورة : النحل آية ١٢٥ .

(٤٧) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٤٨) العبر وديوان المبتدأ ، ج ٦ ص ١٠٣ .

(٤٩) فتح العرب للمغرب ، ص ١٦٥ .

(٥٠) الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٠

(٥١) معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٦ .

(٥٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ، ١٣٨٣هـ) ج ١ ص ٢٠٧ .

(٥٣) شكري فيصل ، حركة الفتح الإســلامي في القرن الأول الهجري (القاهرة ، ١٣٧٢هـ) ص ١٢٥.

(٥٤) عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية (بيروت ، ١٩٨٢م) ص ٣٦٧ .

(٥٥) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ١٩ .

(٥٦) منها : غدامس ، قفصة ، قصطيلية (ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٩٦) .

(٥٧) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢١ .

(٥٨) ومدة خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر إلاّ ثماني ليال (علي بن الحسين المسعودي ، مروج الــذهب ومعــادن الجوهر (الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٦هـ) ج ٣ ص ٦٦ ، عبد الحي ابن العماد الحنبلــي ، شــذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت) ج ١ ص ص ٦٦ ، ٧١.

(٥٩) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٢ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٣ ، الدباغ ، معالم الايمــان ج١ ص ٤٧ .

(٦٠) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٩ .

(٦١) عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٦٢) وذلك لأن أبا المهاجر أساء عزل عقبة بن نافع ، سنة ٥١ هـ = ٦٧١م وسجنه وقيّده بالحديد ، حتى أتاه الكتاب من الخليفة معاوية بن أبي سفيان بتخلية سبيله وإرساله إليه ... (ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٧) .

(٦٣) المؤنس في أخبار أفريقية وتونس (الطبعة الثالثة ، تونس ، ١٣٨٧هـ) ص ٣٠ .

(٦٤) جاء الفتح الإسلامي الأول للمغرب على يد عبد الله بن أبي السرح سنة ٢٧هـ = ٦٤٧م .

(٦٥) الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٤٣ .

(٦٦) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٣ .

(٦٧) وكان مما قال في خطبته " ... عليكم بالقرآن فإن القرآن دليل على الله عزّ وجلّ ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ... وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء ، فإن الدين ذلّ بالنهار وهمّ بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم ، وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم ، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين ، فيجهّلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا ... " . المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٢٢ ، الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٤٨ .

(٦٨) مدينة كبيرة في أقصى أفريقية ، بين مجانة وقسنطينة عليها سور أزلي من حجارة ، ولها ربض عليه سور ، والأسواق فيه (ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٤ وما بعدها ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٢٥) .

(٦٩) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٣ .

(٧٠) يقع هذا الإقليم في مفازات نوميديا ، ويبتدئ غرباً من تخوم مسيله ، ويحده شمالاً جبال مملكة بجاية ، ويمتد شرقاً إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس ، وجنوباً إلى القفار التي تقطعها الطريق المؤدية من تقرت إلى وركله ، ويشتمل هذا الإقليم على خمس مدن ، بسكرة ، البرج، نفطه ، طولقة ، دوش ... (الفاسي ، وصف أفريقية ج ٢ ص ١٣٨ - ١٤٠) .

(٧١) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٣ ، الميلي ، تاريخ الجزائر ص ٢٥ .

(٧٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥١ .

(٧٣) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٣ ، ٢٤ ، الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٤٩ .

(٧٤) الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٥٣ ، عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ١٣٨ .

(٧٥) قيل أن يليان كان من أشراف ملوك الروم وأعاظمهم وذوي العقل والدهاء فيهم ، فحين قرب عقبة من بلاده استلطفه واستعطفه ، وبعث له هدية عظيمة وسالمه ونزل على حكمه (ابن عذاري، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٦)

(٧٦) مدينة بالمغرب قرب طنجة (ياقوت ، معجم البلدان ج ٥ ص ٣٨٤ ، ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٤٤٥) .

(٧٧) مدينة صغيرة بالمغرب من جنوب الغرب ، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ (ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥١ ، ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٥٢٣) .

(٧٨) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٧٩) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٧ ، وذكر أيضاً في عدة مراجع أخرى مع اختلاف في بعض الألفاظ منها : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٩ ، المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ص ٢٤، ٢٥، الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٥١ ، السلاوي ، الاستقصا ج ١ ص ٨٢ .

(٨٠) وينسبون إلى مادغيس الأبتر (جد البرابرة البتر) وكان ابنه زحيك ، ومنه تشعبت بطونم فكانله من الولـد فيما يذكر نسابة البربر أربعة : نفوس وأداس وضار ولوا . . . (ابن خلدون، العبر ج ٦ ص ١١٤) .

(٨١) الذود : القطيع من الإبل بين الثلاث إلى التسع ، وقيل ما بين الثلاث إلى العشر . (ابن منظور، لسان العرب (بيروت ، دار صادر ، ١٣٧٤هـ) ج ٣ ص ١٦٨ .

(٨٢) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٦ ، وورد النص مع بعض التغيير في : ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٩ : الدباغ : معالم الإيمان ، ج ١ ص ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٨٣) أدخل يده بين جلد الشاة وصفاقها للسلخ (محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس مـن جـواهر القـاموس (بيروت ، دار الفكر) ج ٤ ص ١٤٦ .

(٨٤) أي يتألف وهو المدارة والايناس لمن دخل جديداً في الإسلام ؛ ليثبتوا على إسلامهم (ابن منظـور ، لسـان العرب ، ج ٩ ص ١١) .

(٨٥) أحد المؤلفة قلوبم ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف ، وقـد حسـن إسلامه ، وقدم مع وفد بني تميم على الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ناداه من وراء الحجرة الخاصة به أن اخرج إلينا يا محمد ... (محمد بن عبد البر القرطبي ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (الطبعة الأولى، بيروت ، دار الكتب العلمية) ج ١ ص ١٩٣.

(٨٦) الفزاري ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف ، أعطاه صلى الله عليه وسلم في حنين مائة من الإبل ، وكان مع المشركين يوم الخندق ... (محمد بن سعد، الطبقات الكبرى ، (بيروت ، دار صادر) ج ٢ ص ص ٧١ ، ١٥٣ .

(٨٧) النفرة هي الجماعة الذين ينفرون في الأمر (ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٥ ص ٢٢٥) .

(٨٨) عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ١٣٤ .

(٨٩) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١٩ - ٢١ .

(٩٠) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١٩ .

(٩١) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، م ١ ج ٢٢ ورقة ٧٠ .

(٩٢) فتح العرب للمغرب ، ص ١٨٧ .

(٩٣) وقيل "لم يكن السبب الشخصي بين عقبة وكسيلة ليكفي لقيام تحالف بين البربر والروم (سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ج ١ ص ٢٠٣) .

(٩٤) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ص ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٧ .

(٩٥) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٣ ، الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٤٨ .

(٩٦) النويري ، مخطوط نهاية الأرب م ١ ج ٢٢ ورقة ٧٢ .

(٩٧) البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٩ .

(٩٨) ابن أبي الضياف ، إتحاف أهل الزمان ص ٨١ .

(٩٩) ذكر ابن عبد الحكم في فتوح مصر وأخبارها، ص ١٩٨ "أن كسيلة هو الذي كان يدفن الآبار خلف عقبه".

(١٠٠) فقد أدّب ملك ودّان ، ملك جرمة (عاصمة الجرمنيين) ، وملك خاوار . ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ج ١ ص ٩٠ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٩٥ .

(١٠١) قيل أن البربر إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام ، فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم منهم ، وكان ذلك في سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م (ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ٣ ص ٣٢٠) .

(١٠٢) فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٩٨ .

(١٠٣) توذة . وقيل (توده) ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٢٨٣ ، وقيل (توذا) و(تودا) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٧ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٣٠، وهي مدينة قديمة توجد إلى الجهة الجنوبية من الأوراس ، بينها وبين البسكرة مرحلة فقط (ثلاثة كيلو مترات) ، ومكانها الآن سيدي عقبة من أرض الزاب (سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، عبد الوهاب منصور ، قبائل المغرب ج ١ ص١١٢ ، أتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م ، تعريب خليفة التليسي (الطبعة الأولى، بيروت ، دار الثقافة ١٣٩٤هـ) ص ٥٦) .

(١٠٤) ابن خياط ، تاريخ خياط ، ص ٢٥١ ، ابن تغري ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٠٨ .

(١٠٥) كورة بالمغرب مدينتها طرقله ، بينها وبين السوس الأدنى مسيرة شهرين (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٨١ ، ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٧٥٥) .

(١٠٦) بلاد عامرة بالسكان تتاخم غرباً جبل سوس ايلد ، وشمالاً الأطلس ، حيث تقع في سفحه (الفاسي، وصف افريقية ج ١ ص ١٤٤) .

(١٠٧) بلد بالمغرب تمدّ بنهر أمّ الربيع شمالاً وتنسيفت جنوباً وإلى غربا البحر المحيط (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٥٩) .

(١٠٨) بلد بالمغرب تبدأ من التلال المتاخمة لدكالة غرباً وتنتـهي شـرقاً عنـد نـر تنسـيفت في سـفح جبـل أدماي ، وتتاخم شمالاً وادي العبيد الفاصل بين هسكورة وتادلا (الفاسي ، وصـف أفريقيـة ، ج ١ ص ١٦٣) .

(١٠٩) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٨ .

(١١٠) بلدة في طرف أفريقية ، مما يلي المغرب على صفة الزاب الكبير ، وهي أعظم بلادها ، بينها وبـين المسـيلة مرحلتان (ستة كيلو مترات) ، ولم يكن من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها (ابن عبـد الحـق ، مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٨٧٩ ، الحميري ، الروض المعطار ، ص ٣٨٧) .

(١١١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٢ ، السلاوي ، الاستقصا لاخبار المغرب الأقصى ص ٨٣ ، وفي رواية " ثقة بما دوّخ من البلاد وأذلّ من البربر " ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ج ٦ ص ١٤٦ .

(١١٢) ابن عذاري ، البيان المغرب، ج١ ص ٢٨ ويقول "فتفرق عنه جيشه للإياب إلى أحيائهم والبدار إلى عيالهم" .

(١١٣) يقول ابن عذاري، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٠ " مكث عقبة في المغرب ثلاث سنوات " .

(١١٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٨ .

(١١٥) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ١٩٨ .

(١١٦) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ج ٦ ص ١٤٦ ، الطرابلسي ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ص ص ٣٢ ، ٣٣ ، الزاوي ، تاريخ الفتح العربي هـامش ٢ ص ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، وقيـل "خمسـة آلاف" المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٦ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٩ ، ولابن عذاري روايـة أخرى وهي " جمع قليل " وقيل "في نفرٍ يسير".

(١١٧) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٦ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٩ ، الدباغ، معالم الإيمان ج ١ ص ٥٤ . .

(١١٨) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٥ .

(١١٩) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٥ .

(١٢٠) ناية الأرب في فنون الأدب ، م ١ ج ٢٢ ورقة ٧٢ ، ٧٣ .

(١٢١) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٧ ، النويري ، ناية الأرب م ١ ج ٢٢ ورقة ٧٣ ، ابـن أبي دينـار ، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ص ٣٢ ، الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٥٢ ، الميلي ، تاريخ الجزائر ، ج ٢ ص ٢٦ .

(١٢٢) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ج ٦ ص ١٤٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٠٨ .

(١٢٣) بلدة صغيرة في طرف أفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير ، وهي قديمة جداً بناها الرومان بالحجر العظيم فتحها عبد الله بن سعد بن أبي السرح سنة ٢٦هـ / ٦٤٦ م ، ودمّر أسوارها .. (الفاسي ، وصف أفريقية ج ٢ ص ١٤٣ ، ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، ج ٣ ص ١١١٣) .

(١٢٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ٢٩ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٠٨ ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ج ٦ ص ١٤٧ ، الميلي ، تاريخ الجزائر ، ج ٢ ص ٢٨ .

(١٢٥) لقد نظم كسيلة بالاتفاق مع الحاميات البيزنطية المقاومة ضدّ العرب (بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٢٧) .

(١٢٦) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(١٢٧) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥١ .

(١٢٨) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢١ .

(١٢٩) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الطبعة الرابعة ، مصـر ، مكتبـة النهضـة ، ١٩٧٣م) ج ٤ ص ص ١٢١ ، ١٢٢ ، محمد مصطفى النجار ، فتوحات الإسلام في افريقيـة والمغـرب والأندلس ، (ط ١ ، القاهرة مكتبة النهضة ، ١٣٨٧ هـ) ص ١٨ ، محمد ضياء الدين الريس ، عبد الملك بن مروان والدولة الأموية (ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٩ م) ص ٢٠٠، حسن محمود ، ليبيا بين الماضي والحاضر (ليبيا ، ١٣٨١هـ) ص١١١ ، عبد اللطيف محمود البرغوثي، تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسـلامي حتى بداية العصر العثماني (بيروت ، دار صادر ، ١٣٩٢هـ) هامش ٢ ص ٥٨ .

(١٣٠) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ص ٤٥٢ ، الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٥٢ .

(١٣١) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٧ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢١ ، الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٥٤ ..

(١٣٢) الميلي ، تاريخ الجزائر ، ج ٢ ص ٢٦ .

(١٣٣) الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٦ .

(١٣٤) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٧ .

(١٣٥) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٢٠٤ .

(١٣٦) قيل أن عقبة وقف على الأرض وقال " أيتها السباع ارحلوا فإنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فنظر الناس ذلك اليوم إلى أمرٍ عظيم ، نظروا إلى السباع تخرج حاملة أشبالها والذئاب تحمـل اجراءهـا ، والحيات تحمل أولادها ..." المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٧.

(١٣٧) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٨ .

(١٣٨) محمد النجار ، فتوحات الإسلام في أفريقية والأندلس ، ص ١٨ .
(١٣٩) معالم الإيمان ، ج ١ ص ٥٥ .
(١٤٠) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣١ .
(١٤١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٠ ، وافق ذلك القضاعي في الحلة السيراء ص ٤٦٥ مع تغـيير في بعض الألفاظ .
(١٤٢) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٨ ، ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ج ٦ ص ١٤٧ .
(١٤٣) الكامل في التاريخ ، ج ٣ ص ٤٥٢ وعليه : الميلي ، تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٩ ، عبد الوهاب منصـور ، قبائل الغرب ، ج ١ ص ١١٢ ، النويري ، ناية الأرب ، م ١ ج ٢٢ ورقه ٧٣ .
(١٤٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣١ .
(١٤٥) قادة كسيلة خمسة وأربعون ألفاً ، وكان المسلمون في عشرة آلاف .
(١٤٦) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٢٠٥ .
(١٤٧) سورة : البقرة آية ١٩٥ .
(١٤٨) ابن أبي الضياف ، اتحاف أهل الزمان ص ٨١ .
(١٤٩) سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ج ١ ص ٢٠٧ ، عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسـلامي ص ١٤٦ .
(١٥٠) شكري فيصل ، حركة الفتح الإسلامي ، ص ١٢٨ .
(١٥١) محمد النجار ، فتوحات الإسلام في أفريقية والمغرب والأندلس ص ١٨ .
(١٥٢) شكري فيصل ، حركة الفتح الإسلامي ، ص ١٢٨ .
(١٥٣) ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ص ٣٢ .
(١٥٤) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٢١١ .
(١٥٥) معالم الإيمان ، ج ١ ص ٥٥ .
(١٥٦) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٨ .
(١٥٧) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٢٠٦ .
(١٥٨) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٨ .
(١٥٩) حسن محمود ، ليبيا بين الماضي والحاضر ص ١١١ .
(١٦٠) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٢٠٦ .
(١٦١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ١٢٧ .

(١٦٢) تولى سنة ٦٠هـ / ٦٧٩م وتوفي سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م (ابن العماد الحنبلي ، شذرات الـذهب ، ج١ ص ٦٥ ، ٧١) .

(١٦٣) بويع بالخلافة سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م) بالشام (محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت ، دار سويدان) ٥ ص ٥٠١) .

(١٦٤) علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (ط ١ ، ١٤٠٦هـ ، بـيروت ، دار الكتـب العلمية) ج ٣ ص ٨٨ ، أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (بيروت ، دار بـيروت للطباعـة والنشر) ج ٢ ص ٢٥٤ .

(١٦٥) وكانت البيعة في شهر رجب لسبع خلون من سنة ٦٤هـ = ٦٨٣م (ابن خياط ، تاريخ ابـن خيـاط ص ٢٥٧) .

(١٦٦) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٥٣٤ ، المسعودي ، مروج الذهب ج ٣ ص ١٠٤ .

(١٦٧) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٦١٠ ، اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٧ .

(١٦٨) عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ص ٣٨٠ .

(١٦٩) ممش أو ممس Mamma مدينة بيزنطية حصينه قديمة ، وهي واقعة على الجنوب الشرقي من جبـال أوراس بالجزائر (النويري ، نهاية الأرب ، م ١ ج ٢٢ ، ورقة ٧٣ ، حسين مؤنس ، فتح العرب للمغـرب ، ص ٢٢٠ ، هامش ٣ ، عبد اللطيف البرغوثي ، تاريخ ليبيا الإسلامي ص ٥٩).

(١٧٠) محمود شيت خطاب ، قادة فتح المغرب العربي (الطبعة الأولى، بيروت ، ١٣٨٦ هـ) ج ١ ص ١٥٤ .

(١٧١) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٩ .

(١٧٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣١ ، النويري ، نهاية الأرب م ١ ج ٢٢ ورقة ٧٣ ، الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٥٧ .

(١٧٣) النجار ، فتوحات الإسلام في أفريقية والمغرب والأندلس ، ص ١٩ .

(١٧٤) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٢٩ ، الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٥٦ .

(١٧٥) لم أجد لها ذكراً في المعاجم ، ولعلها قرية صغيرة في الشمال الشرقي من القيروان ؛ باعتبار الجـيش تحـرك ناحيتها .

(١٧٦) جاء هذا التحديد بناءً على أن كسيلة دخل توزة في خمسين ألفاً ، وانتقل منها إلى القيروان بذا العدد ، ولما كان هذا الجيش قضى خمس سنوات في القيروان من غير قتال ، فربما انسحب البعض وهاجر الآخر ، فنقص منهم حوالي خمسة آلاف تقريباً .

(١٧٧) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٣ .

(١٧٨) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢ .

(١٧٩) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٢٢٠ هامش ٣ ، البرغوثي ، تاريخ ليبيا ص ٥٩ .
(١٨٠) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٣٠ .
(١٨١) النويري ، ناية الأرب م ١ ج ٢٢ ، ورقة ٧٣ .
(١٨٢) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٣٠ .
(١٨٣) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٣٠ ، الدباغ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٥٨ .
(١٨٤) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ ج ٦ ص ١٤٧ .
(١٨٥) سورة الأنفال : آية ٣٠ .
(١٨٦) وفي رواية "وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا " ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٣ .
(١٨٧) الطرابلسي ، المنهل العذب ج ١ ص ٣٨ ، حسن محمود ، ليبـ ـيا بين الماضي والحاضر ، ص ١١١ .
(١٨٨) وقيل أن المسلمين سـ ـقوا خيلهم من ملّوية (وادٍ بطنجه) ، المالكي ، رياض النفـ ـوس ج ١ ص ٣٠ .
(١٨٩) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٣١ .
(١٩٠) محمود شيت خطاب ، قادة فتح المغرب العربي ص ١٥٧ .
(١٩١) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٣٠ .
(١٩٢) محمود شيت خطاب ، قادة فتح المغرب العربي ص ١٥٧ .
(١٩٣) المالكي ، رياض النفوس ج ١ ص ٣٠ .
(١٩٤) أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج ٤ ص ١٢٣ .

M. N. Al-Mulhem

Kingdom of Saudi Arabia

Abstract:

Praise be to Allah only, and Allah's peace and blessings be upon our prophet who is not followed by any other prophet.

In this research, I have discussed the introduction of Kusailah, his position and the position of the Barbars before the Islamic Conquest. I have also discussed the attitude of Kusailah towards Abi Muhjir Dinar (55 - 62H; 674 - 681 A.D.), and the attitude of Abi Muhjir towards Ukbah Ben Nafi'a (62 - 64 H; 681 - 683 A.D.). I have shed light on the role of Kusailah and the Barbars during the Islamic conquest and then explained the attitude of Ukbah ben Nafi'a towards Kusailah, the Battle of Tahoothah and the attitude of the Muslim Barbars towerds this battle. Then, I have referred to the withdrawal of the Muslims from the city of Kairawan and Kusailah's capturing of this city afterwards. I have shown the attitude of Zuhair Ben Qais towards Kusailah and his allies in the Battle of Mims (69H; 688 A.D.).

In my conclusion of the research, I have pointed out the important results at which I have arrived.